AYAAT ILM ACADEMY
أكاديمية آيات للعلوم الإسلامية

المستوى الأساسي

منهج العقيدة

الفصل الدراسي الرابع

عقيدة ٢٣٢

إعداد

كامل أحمد
ماجستير العقيدة والأديان
ومدرس بالجامعة الدولية المفتوحة

الطبعة الأولى
١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م

المقدِّمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فهذا الكتاب عبارة عن جمع مادة لهذا المقرر في العقيدة المتقدمة. والهدف من هذا المقرر هو مساعدتنا في مواجهة تحدي موجة الشكوك والادعاءات الكاذبة التي نشهدها اليوم ضد الإسلام ومبادئه، سواء كنت أنت نفسك تتعرض لهذه الشكوك، أو تريد مساعدة من قد تأثر بها، أو تريد أن تزود نفسك بالمعرفة للتعامل مع هذه الشكوك. وإن ما يرجى تحقيقه من خلال هذا المقرر هو أن يظهر لك أن الإيمان بالإسلام باعتباره الحق ليس شيئا عاطفيا مبنيا على اتباع أجدادنا فحسب، بل هو حق مبني على مجموعة واسعة من الأدلة والبراهين والحجج المقنعة تخضع لعقولنا وقلوبنا.

وقد اعتمد هذا الكتاب على عدة مصادر، منها:

١- حركة الإلحاد الجديد في الغرب (وهو رسالتي التي قدمت بها لنيل درجة الماجستير)

٢- سابغات لأحمد السيد

٣- شموع النهار لعبد الله العجيري

٤- ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث لسلطان العميري

والله أسأل أن يكون هذا العمل نافعا للطلاب، وخالصا لوجهه الكريم، وأن يتقبل مني وأن يعفو عن زللي.

كامل أحمد

الخميس، ١٤- جمادى الآخرة- ١٤٤٣ هـ الموافق لـ ٢٧- ١- ٢٠٢٢

أونتاريو - كندا

مدخل

في كل عصر تأخذ المعركة بين الحق والباطل أشكالاً مختلفة، فإذا كانت المعركة في الماضي بين الأنبياء وأقوامهم مركزة على الآلهة الباطلة التي كانوا يعبدونها، فإن المعركة اليوم هي على أفكار أو أيديولوجيات هدامة يعبدها أعداء الإسلام ويريدون منا أيضًا أن نعبدها. لذلك فإن وثنية الجاهلية كانت وثنية عبادة الأصنام، بينما وثنية اليوم هي وثنية الأيديولوجيات.

هناك العديد من الأيديولوجيات التي حاول الغرب استعمار عقولنا وقلوبنا بها، مثل الليبرالية والنسوية والإنسانية وغيرها من المذاهب الفكرية الضالة، ولكن أخطر هذه الأيديولوجيات اليوم هو الإلحاد، والذي يعتبر النهاية الطبيعية لكل هذه الأيديولوجيات الضالة: وهو إنكار وجود الله تعالى.

كان هناك وقت اعتقد فيه كثير من المسلمين أن مثل هذه الحقيقة الأساسية لن ينكرها أي مسلم أبدًا، فعلى الرغم أن شبابنا قد انحرفوا سلوكيا وأخلاقيا وقد يتبنون العديد من القيم الغربية إلا أنهم لن يتبنون الإلحاد. ولكن الحقيقة المؤسفة أن كثيرا من شبابنا أصبحوا ملحدين، أو على الأقل يشككون في وجود الله وأمور أخرى أساسية التي تُعلم من الدين الإسلامي بالضرورة.

فكيف نتعامل مع هذه الظاهرة؟ كيف نرد على شكوك واعتراضات أعداء الإسلام؟ كيف نحمي شبابنا من الردة والإلحاد في هذا العصر العصيب؟

إذا تأملنا في الحروب عبر التاريخ البشري فيمكن ملاحظة أنها تقوم على مرتكزين أساسيين: الهجوم والدفاع، ومن ثم احتاج الإنسان إلى آلات للحرب في كلنا الحالتين، فاتخذ للهجوم آلات وللدفاع أخرى، فصنع السيوف والرماح والنبال، وأعد للدفاع الدروع والسابغات.

وإذا استرسلنا في الحديث عن الصراع الإنساني فسنجد أنه لا يقتصر على القتال بالسيوف والرماح والأسلحة النارية، فثمة ساحات أخرى للصراع، أدواتها الأقلام والألسنة، وأهدافها الانتصار بالحجة على المخالف.

وحينما ننظر إلى سيرة أشرف الخلق نبينا محمد ﷺ وما واجهه مع قومه نجد أن أعداءه قد اتخذوا ضده الحربين: الكلامية والحسية، وسلك هو في سبيل صد عدوانهم حرب الحجة والبرهان وحرب السيف والسنان، ولهذا أمره الله في أول الأمر أن يجاهدهم بالقرآن جهادا كبيرا: (فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) [الفرقان: 52]. أي بالقرآن.

وهكذا عبر التاريخ الإسلامي وقف علماؤنا في وجه الاعتداءات الكلامية ضد الإسلام ومبانيه بمجادلة مثيريها، ونقد أدلتهم، وبيان دلائل الحق وبراهينه بالعقل والنقل، فأظهروا بطلانها وزيفها، وأقاموا البراهين على صحة دين الإسلام وجماله وصلاحيته لكل زمان.

ولا زالت الشبهات تثار ضد الإسلام وشريعة الله مما يبرز الحاجة إلى التحصن بالآلات العلمية والهجوم بالآلات البرهانية، وبذلك نجهز أنفسنا وشبابنا بالدروع اللازمة لحمايتهم من هجمات أعدائنا.

معالم الموجة التشكيكية المعاصرة ضد الإسلام ومبادئه:

حين يستخرج الأطباء لقاحا للمناعة من داء معين، فإن هذا الاستخراج مسبوق بخطوات في تحديد طبيعة الداء وحقيقة أسبابه، وهكذا في الأمور الفكرية وفي الظواهر الاجتماعية، لا يحسن علاج أي مشكلة ما لم يكن المعالج على دراية بحقيقتها وطبيعتها وأسبابها. فلذلك يحسن في البداية وصف الموجة التشكيكية المعاصرة وبيان سماتها ثم أسباب التأثر السلبي بها.

أولا: هذه الموجة في غالبها هدمية لا بنائية، فوضوية لا منهجية؛ تثير الإشكالات وتبرز الاعتراضات، ثم لا تقدم رؤية أو فكرة بديلة متماسكة.

منها: أن المتابع للطرح الإلحادي يجد في كثير منه البُعد عن تقرير الفكرة الإلحادية الأساسية، وهي نفي وجود الخالق، وإنما تجد أكثر اهتمامهم بنقد الدين – وخاصة الإسلام – مع وجود الثغرات الكبرى في صميم الفكرة الإلحادية ذاتها، لكنهم يُعرضون عنها ولا ينشغلون بالإجابة عن الأسئلة الحقيقية التي تواجه اعتقادهم.

ثانيا: تحمل الموجة التشكيكية المعاصرة شعارات عامة ذات بريق وجاذبية، ولكنها غير محددة المعالم وغير منسوجة نسجا منهجيا علميا يقي صاحبه من الفوضى أو التناقض. ومن أبرز هذه الشعارات : تحرير العقل، نقد الموروث، رفض الوصاية، الحرية، ونحوها. وهذه الشعارات ليست باطلة محضا، وإنما تحتاج إلى بيان الإجمال الذي فيها وفرز المقاصد الخاطئة التي يدعو إليها المشككون في الإسلام وثوابته عن طريقها.

ثالثا: الميدان الأكبر لبث شبهات هذه الموجة ولاستقبالها والتأثر بها هو شبكات التواصل الاجتماعي، وهذا يعطي الموجة بُعدا توسعيا كبيرا غير خاضع للموانع الجَمعية المفترضة، كالمسجد والمدرسة والأسرة. فيمكن أن يتأثر بها من عاش في بيئة محافظة أو في كنف أبوين صالحين.

رابعا: خطورة هذه الموجة أنها موجهة ضد أصل الإسلام وثوابت الشريعة المتفق عليها، بخلاف ما لو كانت الإشكالات موجهة مثلا ضد إحدى المدارس الشرعية أو ضد عالم من علماء المسلمين، دون

المساس بأصول الإسلام وثوابته، فهو أهون بكثير مما هو عليه الآن. ووجه الخطورة يظهر إن نظرنا إلى المتأثرين بها، فحين يفقد أحدهم أصل الإسلام أو ينكر بعض الثوابت فذلك كفر يؤدي إلى النار.

خامسا: ينقسم المتأثرون بموجة الشبهات المعاصرة إلى قسمين:

١) العابثون الفوضويون الباحثون عن أهوائهم الشخصية في ثنايا هذه الشبهات، وهو كثير.

٢) الذين تأثروا بالشبهات تأثرا فكريا حقيقيا أدى إلى تبنّيهم لأفكار جديدة فيها مخالفات شرعية.

وهذا يدفعنا إلى عدم تعميم الأحكام، وإلى الكف عن إطلاق التهم العامة، وإلى البحث عن سبل متنوعة للعلاج بما يتناسب مع اختلاف الحالات.

أسباب التأثر السلبي بالشبهات الفكرية المعاصرة:

المشاكل أو الظواهر الاجتماعية معقدة ومبنية على مجموعة من الأسباب متداخلة فيما بينها، ولا تختصر الأسباب في سبب واحد أو اثنين. فما يلي بعض أسباب التأثر السلبي بالشبهات الفكرية المعاصرة:

أولا: انتشار الشهوات المحرمة.

ثانيا: ضعف اليقين.

ثالثا: المشاكل النفسية والضغوط الاجتماعية.

رابعا: ضعف الجانب التعبدي، وخاصة أعمال القلوب.

خامسا: ضعف العلم الشرعي.

الفصل الأول

تاريخ موجز عن الإلحاد

الإلحاد في تاريخ البشرية:

لم يكن الإلحاد بمفهومه المعاصر منتشراً في التاريخ البشري إذ لم يذهب إلى إنكار وجود الله تعالى في القديم إلا قلة من الأفراد تعتبر حالتهم حالات شاذة، وإنما الذي كان شائعاً في الأمم قديماً هو الشرك بالله باختلاف أنواعه وصوره. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "فإن جحود الصانع لم يكن ديناً غالباً على أمة من الأمم قط، وإنما كان دين الكفار الخارجين عن الرسالة هو الإشراك، وإنما كان يجحد الصانع بعض الناس، وأولئك كان علماؤهم من الفلاسفة الصابئة المشركين الذين يعظمون الهياكل والكواكب والأصنام، والأخبار المروية من نقل أخبارهم وسيرهم كلها تدل على ذلك." [1]

ومما يشهد لذلك أن القرآن الذي ذكر لنا قصص الأمم السابقة بالتفاصيل الدقيقة لم يذكر قصة واحدة عن ظاهرة إنكار وجود الله في أي قوم من الأقوام، وإنما ذكر لنا ظاهرة مشتركة بين جميع الأمم، وهي صرف العبادة لغير الله مع الاعتراف بوجوده، ولذلك قال تعالى: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ) (سورة يوسف: ١٠٦).

فالمشركون قديماً كانوا يعترفون بوجود الله تعالى خالقاً ورباً ومدبراً لهذا الكون، ولذلك قال تعالى: (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) (سورة العنكبوت: ٦١). وغيرها من الآيات الدالة على أن المشركين كانوا يعترفون بوجود الإله والرب والخالق، ولم يكونوا ينكرون ذلك.

ولذلك لم يبعث الله الأنبياء والرسل إلى أقوامهم ليثبتوا لهم وجود الله تعالى ابتداء لأنهم كانوا مقرين بذلك أصلاً، وإنما بعثهم ليبينوا لهم وحدانيته واستحقاقه العبادة وحده بعد انحرافهم عن ذلك بإشراك الآلهة الباطلة به في ألوهيته. يقول الإمام الشاطبي: "وأصل هذا الاختلاف هو في التوحيد والتوجه للواحد الحق سبحانه، فإن الناس في عامة الأمر لم يختلفوا في أن لهم مدبرا يدبرهم وخالقا أوجدهم، إلا أنهم اختلفوا في تعيينه على آراء مختلفة، من قائل بالاثنين أو بالخمسة، أو بالطبيعة أو بالدهر، أو بالكواكب، إلى أن قالوا بالآدميين والشجر والحجارة وما ينحتون بأيديهم. ومنهم من أقر بواجب الوجود الحق لكن على آراء مختلفة أيضاً، إلى أن بعث الله الأنبياء مبينين لأممهم حق ما اختلفوا فيه من باطله." [2]

فبسبب هذه الظاهرة الموجودة في الأمم - أي الشرك بالله وليس إنكار وجوده - أرسل الله جميع الرسل من نوح إلى محمد π ليدعو الناس إلى عبادة الله وحده، كما قال تعالى: (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ) (سورة الأنبياء: ٢٥).

---

[1] مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٦٣١/٧).
[2] الإعتصام، الشاطبي (٨٩/٣-٩٠).

بداية ظهور الإلحاد في الغرب:

قد تبين مما سبق أن الإلحاد بمفهومه المعاصر لم يكن ظاهرة بارزة في تاريخ البشر قديماً، لا في الغرب ولا في غيرها، وإنما ترجع جذور ظاهرة الإلحاد المنتشرة اليوم في الغرب إلى عصر النهضة والإصلاح الديني في أوربا. ففي هذا العصر انتقلت أوربا من العصور الوسطى إلى العصر الحديث، ومما تميّزت بها العصور الوسطى سيطرة الكنيسة الكاثوليكية على المجتمع الغربي، فكانت قوانين الكنيسة وتشريعاتها هي القانون النافذ في أوربا، وامتد تأثيرها إلى السلطات القضائية وحياة الشعوب في جميع أنحاء أوروبا. فبالتالي كان من المستحيل الاعتراض على الديانة النصرانية المتمثلة في الكنيسة الكاثوليكية بدون اضطهاد وتحويل المتهمين إلى محاكم خاصة سميت بمحاكم التفتيش التي كانت مهمتها اكتشاف مخالفي الكنيسة ومعاقبتهم، خاصة لجرائم البدع والردة وأعمال السحر.

ولكن بعد انتقال أوربا للعصر الحديث قد تغير الوضع وبدأ انهيار سيطرة الكنيسة على المجتمع، وقد تزامن هذا الانهيار قيام عصر النهضة والإصلاح الديني في أوربا مما أتاحت الفرصة لمعارضة الكنيسة وتعاليمها وممارساتها وتصرفاتها أكثر من ذي قبل. وهذا هو الذي حصل بالفعل، فقد بدأ انتقاد المؤسسة الدينية المتمثلة في الكنيسة الكاثوليكية ينتشر في المجتمع. ولكن الملاحظ أن هذا الانتقاد لم يرتق إلى مستوى الإلحاد وإنكار وجود الله، بل كان استخدام كلمة «ملحد» في ذلك الوقت محصور في إهانة شخص معيّن، وبالتالي لم يكن أحد يريد أن يشتهر بهذا الوصف.

ومع أن الاعتراض المعلن على الكنيسة الكاثوليكية انتشر في هذه الفترة إلا أن المجتمع الأوربي لم يقبل أدنى تشكيك في الاعتقاد السائد في وجود الخالق والإله للكون، وكانت تهمة إنكار وجود الله في هذا الوقت في غاية الخطورة، فهناك من اتُهم بذلك وقُتل بسببه،[٣] ولذلك لم يصرّح الكثير إنكارهم لوجود الله بعبارات صريحة وإنما حاموا حول الحمى وعبروا بعبارات محتملة لدفع تهمة الإلحاد عن أنفسهم.[٤]

ثم جاء عصر التنوير حيث أن التفكير الحر والتسامح الديني وغيرها من سمات هذا العصر أتاحت الفرصة للاعتراض المعلن والصريح على المعتقدات الدينية، ومن ذلك التشكيك في وجود الخالق وإنكاره. وقد تحولت نظرة كثير من المثقفين في هذا العصر للدين، فاعترضوا على شرعية رجال الدين في تقرير الحقائق والعقائد الدينية، ونظروا لهذه الحقائق والعقائد منفصلاً عن السلطة الدينية وما تفرضها على العقول بالقوة، مما ساعد على فتح الطريق للتشكيك في أساس الدين الذي هو الاعتقاد بوجود الله. ولكن مع ذلك لم يتوجه إلى إنكار وجود الله في هذه الفترة إلا بعض أفراد المجتمع الأوربي مع وجود عدد كبير ممن اعترضوا على الديانة النصرانية واتجهوا إلى اللادينية مع بقاء الاعتقاد في وجود الخالق والإله.[٥]

---

[٣] كالعالم الفرنسي إتيان دوليه الذي اختنق وأحرق عام ١٥٤٦ م؛ والفيلسوف الإيطالي لوسليو فانيني الذي حُكم عليه بقطع لسانه وقتله خنقاً ثم إحراق جثته، ونفذ ذلك عام ١٦١٩ م؛ والفيلسوف البولندي كازيميرز وشتشينسكي الذي صرّح بإنكار وجود الله في كتاب فلسفي له، فحُكم عليه بنزع لسانه بالحديد المحرق ثم قطع رأسه، وكان ذلك عام ١٦٨٩ م.

[٤] كالفيلسوف الهولندي باروخ سبينوزا الذي كان من أسرة يهودية، وقد طرد من الكنيسة لاحتجاجاته ضد تعاليم الحاخامات ولعدم حضور الخدمات السبتية، وأعرب عن اعتقاده أن الله لم يتدخل في تدبر العالم، بل أن القوانين الطبيعية هي التي توضح لنا طريقة سير الكون، وفي عام ١٦٦١ م نشر أطروحة قصيرة عن الله ولكن لم يصرّح فيه بإنكار وجود الله.

[٥] من الذين صرحوا بإنكار وجود الله في هذا العصر الفيلسوف الفرنسي دنيس ديدرو المتوفى عام ١٧٨٤ م، والفيلسوف الفرنسي الألماني بارون دي هولباخ المتوفى عام ١٧٨٩ م. ومن الذين نسب إليهم الإلحاد القس الكاثوليكي الفرنسي جان ميليه المتوفى عام ١٧٢٩ م، والفيلسوف الاسكتلندي ديفيد هيوم المتوفى عام ١٧٧٦ م.

انتشار الإلحاد في الغرب:

يرى كثير من الباحثين الغربيين أن بداية اننتشار الإلحاد في الغرب كظاهرة اجتماعية ترجع إلى أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلاديين، وهو ما تزامن مع أحداث الثورة الفرنسية التي مهدت الطريق لنشأة الحركات الفلسفية والفكرية في القرن التاسع عشر الميلادي. وقد أنشئ في فرنسا مذهب اعتقادي يسمى "Cult of Reason" أو «عبادة العقل» خلال الثورة الفرنسية، وكان الهدف من ورائه أن يكون بديلاً للديانية النصرانية الكاثوليكية، وكان هذا المذهب قائم على الإلحاد.

فيتضح أن الثورة الفرنسية لعبت دوراً كبيراً كمنطلق لانتشار الإلحاد في أوساط المجتمع الأوربي، ولا شك أن من أهم أسباب الثورة الفرنسية فساد المؤسسات الدينية الكاثوليكية وانتهاكاتها ضد خصومها باسم الدين. ولذلك اتجه الناس في أيام الثورة إلى إزالة كل ما يتعلق بتلك المؤسسات من الرموز وغيرها، فبالتالي وجد من دعا إلى الإلحاد في مثل هذه الأجواء أرضاً خصباً لجذب قلوب الناس بسهولة، سواء اعتنقوا الإلحاد عن قناعة ويقين أو لمجرد موقفهم ضد المؤسسات الدينية ورجالها.

وهنا لفتة مهمة يجب الوقوف عندها، وهو أننا لم نجد في الثورة الأمريكية الميل إلى الإلحاد كما وجدناه في الثورة الفرنسية مع قرب عهد الثورتين. والسبب الرئيسي لذلك هو أن الثورة الأمريكية قامت على رفض الملكية البريطانية وسلطتها على المستعمرات الأمريكية، ولم تكن لدى الثوار معارضة مع الديانة النصرانية بذاتها، بل قد وصل كثير من أجدادهم إلى الأراضي الأمريكية كلاجئين نصارى البروتستانت الذين حاولوا تطهير كنيسة إنجلترا - الكنيسة الرسمية للدولة - من جميع الممارسات الكاثوليكية، ولكن لم ينجحوا في ذلك. وبالتالي لم تتخذ الثورة الأمريكية صبغة فكرية عقائدية كما اتخذتها الثورة الفرنسية. وبناء على هذا لم نجد الانتشار السريع للإلحاد في أوساط المجتمع الأمريكي كما وجدناه في المجتمع الأوربي الذي قام لإزالة قروناً طويلة من الاضطهاد والظلم الكنسي. وهذا ملحوظ إلى يومنا هذا، فإن التدين في أمريكا والتسامح الديني المتمثل في منح حرية ممارسة التعاليم والشعائر الدينية لا يزال ميزة تميّز المجتمع الأمريكي عن المجتمع الأوربي - وعلى وجه الخصوص المجتمع الفرنسي.

إن الأهمية الحقيقية للثورة الفرنسية ودورها في نشر الإلحاد لا يكمن كثيراً فيما أنجزتها في نطاق فرنسا بحد ذاتها، وإنما في الأثر الذي تركت على عقول كثيرة في جميع أنحاء أوربا. فقد سعت الثورة إلى إحداث تغيير دائم - ولو بالقوة - في طريقة تفكير المجتمع الأوربي، فإن ما كان يُظن أنه من البديهيات وغير قابلة للتغيير أصبحت الآن غير صحيحة ومفتوحة للتغيير. فهذا الفكر الذي وُلد من رحم الثورة الفرنسية بدأ الآن ينتشر في الطبقة المثقفة في المجتمع الأوربي، ولم يمكن أن يرسخ الإلحاد في المجتمع بعد إزالة سيطرة السلطة الدينية إلا إذا تمكن قبوله عند طبقتين: طبقة الشعب وطبقة النخبة المثقفة. وهذا الذي حصل بالفعل، فإن المثقفين من المفكرين والفلاسفة والعلماء حلوا محل رجال الدين في أوربا، وأصبح تأثيرهم في تحويل طريقة تفكير المجتمع واضحاً في القرن التاسع عشر الميلادي حيث ولدت الحركات الفلسفية والفكرية، كالعقلانية واللبرالية والماركسية والداروينية، وغيرها من الحركات التي لعبت دوراً كبيراً في الاتجاه الفكري الذي أخذه الغرب فيما بعد في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين.

وهناك عدة شخصيات برزوا في الغرب في هذه الفترة ممن أصّلوا وقعّدوا للإلحاد وفكرة عدم وجود الخالق والإله للكون، سواء عن طريق النظريات الفلسفية الحديثة أو النظريات العلمية التجريبية. ولكن من أهم هذه الشخصيات التي كانت لها دور بارز في تقديم الأفكار الإلحادية لودفيغ فيورباخ، وكارل

ماركس، وتشارلز داروين، وفريدريش نيتشه، وسيغموند فرويد. فهؤلاء مع غيرهم من المفكرين الغربيين في القرن التاسع عشر الملادي قدموا أفكاراً ونظريات أصبحت هي العمدة لكل من جاء بعدهم من الملاحدة إلى يومنا هذا.

فقد قام هؤلاء بتحليل الظواهر المختلفة حسب تخصصاتهم - العلمية والنفسية والاقتصادية والاجتماعية - ثم حاولوا من خلاله إثبات عدم وجود إله وخالق لهذا الكون. وقد أيدهم في ذلك ما وصل إليه المجتمع الغربي في هذه الفترة من التقدم العلمي والتكنولوجي، فاغتر كثير من الناس وظنوا أن الأفكار الإلحادية التي روجت في تلك الفترة قد تم إثباتها وتبريرها علمياً لا مجال للشك فيه، بحيث يمكن في ظنهم أن يفسر ما يحدث في الكون عن طريق العلوم الطبيعية مجردة عن التدخل الإلهي، وأن تفسر المعتقدات الدينية بعوامل اقتصادية واجتماعية أو نفسية كما أن علم الفيزياء - على سبيل المثال - يفسر لنا كيفية سير الكواكب. فأصبح عند المجتمع الغربي ثقافة جديدة في كيفية الوصول إلى الحقائق، سواء كانت طبيعية أو ما وراء الطبيعة، وكيفية التعامل مع المعتقدات الدينية، وكل ذلك نتيجة رواج الأفكار الإلحادية مستندة إلى النظريات المتشتتة في العلوم المختلفة من قبل هؤلاء المفكرين والعلماء.

وهنا سؤال مهم، وهو: ما الذي ساعد في نشر هذه الثقافة الجديدة في المجتمع الغربي وقبول الناس لها في هذه الفترة وما أعقبتها؟ أرى أن ذلك يرجع إلى أمرين رئيسيين:

الأمر الأول هو نقطة التحول في مفهوم الدين وكيفية دراستها في الكتابات الفلسفية الغربية في هذا العصر. فبعد أن كان يُنظر إلى الدين بنظرة فيها شيء من القداسة أصبح يُنظر إليه ويُدرس كظاهرة ثقافية إنسانية مجردة عن أي قداسة. وبالتالي يكون الدين وكل ما يتصل به من معتقدات وشعائر وممارسات بمثابة ظاهرة إنسانية كأي ظاهرة اجتماعية أخرى عبر تاريخ الإنسان، وصل إليها البشر بأنفسهم لحل مشاكلهم الروحية والاجتماعية والسياسية وغيرها، ويفصل الإله منها حتى لا تبرز ظاهرة الدين عن الظواهر الأخرى فيستثنى من النظر إليها ودراستها مفردة.

ونتيجة لهذا التحول أصبح الإلحاد هو الموقف الطبيعي الذي لا يحتاج إلى دليل ولا برهان، وأصبحت المعتقدات الدينية - التي منها الاعتقاد بوجود الله - هي التي تحتاج إلى الدليل العقلي والعلمي حسب ما وصل إليه الغرب في هذا العصر. وبالتالي بدأ تحول كبير في الثقافة الغربية بصفة عامة حيث انتقلت ثقة الناس بشكل حاسم من معتقدات الدين إلى نظريات العلوم الطبيعية.

وهذا يقودنا إلى **الأمر الثاني**، وهو توهم التناقض بين العلوم الطبيعية التجريبية والمعتقدات الدينية وأنه كان هناك حرب قائم بينهما والذي انتصرت فيه العلوم الطبيعية. فرأى الناس أن هذه العلوم معتمدة على الأدلة والتجربة الحسية وتثبت لنا الحقائق التي نشاهدها بحواسنا، بينما يعتمد الدين على فرض عقائده بالسلطة والقوة والتي غالباً ما تكون في مواجهة مع أدلة العلوم التجريبية.

وهذا الأمر مبني على ما جربه المجتمع الأوربي مع الديانة النصرانية ومعتقداتها الفاسدة التي تستند إلى كتبهم المحرفة والخرافات التي لا أصل لها، فبالتالي هو أمر طبيعي أن يجدوا التناقض الشديد بين دعاوى دينهم التي ورثوه والعلم التجريبي الذي اكتشفوه. أما إذا كان الدين مستند إلى شيء ثابت لم يعتريه التحريف والتبديل، ودلت الأدلة على صحته وأنه من عند الله، فلا يمكن أن يتناقض مع ما يكتشفه البشر عن طريق علومهم التجريبية، بل تكون اكتشافاتهم مطابقة بما جاء في نصوص ذلك الدين، وهذا مبسوط في موضعه.

ثم في القرن العشرين الميلادي وجدت الأفكار الإلحادية مكانها في مختلف الحركات الفكرية والفلسفات الغربية، مثل الوجودية، والعلمانية الإنسانية، والعدمية، والوضعية المنطقية، والماركسية، والفوضوية، والنسوية، وعامة الحركات العلمية والعقلانية. وقد سبقت الإشارة إلى أن هذه الحركات وقاداتها بنوا أفكارهم الإلحادية على نظريات وفلسفات أسلافهم في القرن السابق، لكن الفارق أن قادات الإلحاد في القرن العشرين نشطوا في نشر أفكارهم الإلحادية في المجتمعات ولو بقوة السلاح. وقد لاحظ المؤرخ الغربي جيفري بلايني ملاحظة مهمة في نشر الإلحاد في هذه الفترة، وهي أن قيادات الملحدين في المجتمعات الغربية في القرن العشرين نشطوا أكثر من ذي قبل إلى حد العنف، مع موقفهم المعروف تجاه فكرة تدخل الإله في شؤون الناس ورأيهم بأن النصرانية هي التي اشتهرت عبر التاريخ بترويج الحروب والعنف لحماية مصالحها. فانقلبت الموازين وصارت للإلحاد غلبة وسلطة، فهرقوا الدماء وقتلوا من قتلوا باسم أفكارهم الإلحادية وحمايتها. وفي الحرب العالمية الثانية كان القادة الذين عُرفوا بالقسوة والعنف هم ملحدون وعلمانيون الذين اشتهروا بمعاداتهم لليهود والنصارى.

وقد استمر الوضع خلال القرن العشرين الميلادي نحو الترويج للإلحاد والأفكار الإلحادية في المجتمع الغربي، وخاصة مع قيام الدول المدنية التي نصت دساتيرها على فصل الدين عن الدولة وحماية الفكر الحر. وقد ساعد على نشر الإلحاد في المنتصف الثاني من القرن العشرين تأسيس منظمات ومؤسسات إلحادية تقوم بنشر الإلحاد في المجتمعات الغربية وخارجها. ولذلك يمكن أن نقول بأن هذا العصر - المنتصف الثاني من القرن العشرين - هو عصر الإلحاد في الحقيقة الذي انتشر فيه الإلحاد في جميع طبقات المجتمع الغربي، وأن العصور التي سبقته كانت بمثابة تمهيد الطريق للإلحاد حتى يغرس في المجتمع الغربي والذي لم يحدث بالفعل إلا بعد منتصف القرن العشرين الميلادي.

وأما الأفكار الإلحادية في هذه الفترة فقد تطورت مع تطور النظريات العلمية التي كانت تستند إليها، فكلما تستجد الاكتشافات في عالم العلوم الطبيعية تستجد معها الأفكار الإلحادية. وهذا إن دل على شيء فيدل على عدم استقرارها على حجج وبراهين ثابتة، بل تعتمد على مجرد فرضيات متعلقة بزمن معيّن، فإذا تطورت تلك الفرضيات وظهر عدم صحتها بناء على أحدث الاكتشافات في العلوم الطبيعية اضطر الملحدون إلى مراجعة وتصحيح أفكارهم الإلحادية.

وبالتالي يظهر ضعف مستند الإلحاد حتى في عصر تطورت فيه العلوم الطبيعية بشكل كبير مقارنة بالعصور الماضية، مع العلم بأن منهج العلوم الطبيعية الذي يقوم على التجربة لا يمكن أن يكون وسيلة إلى كل المعارف، بل تلك المعارف التي تفتقر إلى الدليل الحسي وفق المنهج العلمي التجريبي، كما أن المعارف التاريخية - على سبيل المثال - تفتقر إلى الدليل وفق المنهج التاريخي الذي يستند غالباً على الرواية. فمن الغباء أن يستخدم المنهج العلمي التجريبي للاستدلال على ما لا يمكن إدراكه بالحس - ومن ذلك محاولة الاستدلال به على عدم وجود الخالق - كما أنه من الغباء أن يستخدم المنهج العلمي التجريبي للاستدلال على واقعة تاريخية، أو العكس بحيث يستخدم المنهج التاريخي للاستدلال على حقائق علمية في الكون.

فالحقيقة أن هؤلاء الملاحدة وأسلافهم لم يعتمدوا على أدلة حقيقية لإنكارهم وجود الله، بل اعتمدوا على ظواهر الأدلة التي لا تفيد العلم خارج نطاق الطبيعة أو كما تسمى «ما وراء الطبيعة». فهم في ذلك كما وصفهم الله: (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) (سورة الروم: ٧). وبالتالي حقيقة أدلتهم وحججهم ليست إلا أوهاماً وظنوناً: (وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) (سورة الجاثية: ٢٤). ولا تغني تلك الأوهام والظنون من

الحق شيئاً: (وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا) (سورة النجم: ٢٨).

وفي ختام هذه اللمحة التاريخية عن الإلحاد في الغرب أود أن ألفت نظر القارئ إلى أن هناك عديد من الأسباب والدوافع التي دفعت الملاحدة لإنكار وجود الله عبر التاريخ، ولكن الملاحظ أن الدافع الرئيسي في غالب الأحيان - سواء في القديم أو الحديث - هو: التكبر وعدم إرادة الإذعان والتسليم للشرائع السماوية، سواء كانت حقاً من الله أو أصيبت بالتحريف. أما في القديم فالتكبر كان واضحاً، فإن أمثال فرعون لم ينكر وجود الله بناء على حجج وأدلة أقنعته أنه لا يوجود إله للكون، بل كان وجود الله أمراً معلوماً متيقناً لديه، وإنما دفعه إلى هذا الإنكار التكبر وطلب العلو حتى لا يذل نفسه ويسلّم للشريعة التي جاء بها موسى: (وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) (سورة النمل: ١٤).

وأما في العصر الحديث فلم يتغير شيء كثير، وإنما قدم الملاحدة نظريات يزعمون أنها تدل على عدم وجود الله مع وجود التكبر وراء ذلك الذي دفعهم إلى هذه المرحلة. فإنك لن تجد أحداً في القرون الماضية ولا في العصر الحاضر - في غالب الأحيان - ينكر وجود الله إلا وقد دفعه إلى هذا الإنكار التكبر وعدم إرادة الإذعان والتسليم لما تطالب بها الأديان من الأوامر والنواهي. وهذا أمر متوقع ومعقول إذا كان مصدر هذه الأوامر والنواهي السلطة الدينية المتمثلة في الكنيسة الكاثوليكية التي قامت على دين مزيف وخرافات لا أصل لها في العلم والعقل، والتي قامت ضد كل من عارضها بالاضطهاد والتعذيب والقتل. فلما بلغ ظلم الكنيسة ذروة سنامه وتزامن ذلك مع الاكتشافات العلمية الظاهرة استغل المفكرون والعلماء الفرصة للتحرر من السلطة الدينية باختيار العلم التجريبي بدلاً من اللاهوت الديني كأداة ووسيلة لمعرفة الحقائق الحسية والغيبية. ولكن بعد تتبع الأحداث التاريخية التي أدت إلى هذه المرحلة في المجتمع الغربي يظهر جلياً أنه كان من وراء ذلك كله إرادة الانفكاك والتحرر من الأديان لأنها تستلزم السير على طريقة معيّنة في هذه الحياة. ولذلك إذا اعترض أحد على الحرية المزعومة التي يعيشها المجتمع الغربي اليوم، ونادى بإقامة الدين وتطبيق أحكامه، ينسبونه بلا تردد إلى الظلم والاضطهاد والاستبداد التي أسقطوها قبل عدة قرون.

الفصل الثاني

أدلة وجود الله

تعتبر مسألة إثبات وجود الله تعالى من الأصول الدينية البدهية حيث تحتل المركز الأساسي للقضايا العقدية، فتكون جميع العقائد الإسلامية تابعة لها مبنية عليها. فمن المحال الإقرار بأصول العقائد الإسلامية كالإقرار بوحدانية الله، أو الإقرار للنبي ﷺ بالنبوة والرسالة، أو الإقرار بالبعث بعد الموت والحساب والجزاء دون معرفة الله والإقرار بوجوده أساساً، بل لا تكون لتلك العقائد أي معنى دون الإقرار بوجود الرب. وبما أن الأمر كذلك فإن مسألة إثبات وجود الله تعالى في ضوء العقيدة الإسلامية هي من الحقائق البديهية التي لا تفتقر إلى برهنة خاصة أو تدليل معين.

وهذه نقطة مهمة قبل الشروع في نقد موقف الملحدين تجاه إثبات وجود الله، فإن دعاة الإلحاد يسعون لإثبات الفكرة بأن إنكار وجود الله هو الموقف الطبيعي، وذلك بطرح مناقشة هذه المسألة بالسؤال الافتراضي التالي: هل يوجد الإله الخالق للكون وما هي الأدلة التي تدعم هذا الاعتقاد؟ وبالتالي يكون التشكيك بوجود الله هو السؤال الافتراضي الذي يبدؤون به مناقشتهم مع خصومهم من المثبتين لوجود الله تعالى. ولذلك فإنه ينبغي مناقشة هذا السؤال الافتراضي نفسه قبل البدء بمناقشة مسألة إثبات وجود الله، فإن وجوده سبحانه من البديهيات التي لا تحتاج إلى دليل لإثباته. فلا ينبغي أن يكون السؤال: هل يوجد الإله؟ بل السؤال الأحرى هو: ما هي الأسباب التي تجعلنا ننكر وجوده؟ فمن هذا المنطلق يتم إثبات القول بأن الإقرار بوجود الله هو الموقف الطبيعي، وليس الإلحاد كما يصوره لنا دعاة الإلحاد.

ولكن لا يعني هذا بأن إثبات وجود الله تعالى يتم بدون البراهين والحجج، بل كما سنرى فيما يلي أن الحجج والأدلة التي تدعم وجود الله تعالى كثيرة متنوعة وفي غاية القوة. ولذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن أصل المعرفة والإقرار بالصانع لا يقف على النظر والاستدلال، بل يحصل بديهة وضرورة... ومع هذا فالطرق النظرية تفيد العلم والمعرفة، ولا منافاة بين كون الشيء يُعلم بالبديهة والضرورة ويكون عليه أدلة."[٦]

ولكن المقصود هنا تصحيح المبدأ الذي منه ننطلق في مناقشة مسألة إثبات وجود الله تعالى، وأنه لا ينبغي أن يُطالب بالدليل لإثبات الحقائق البديهية التي منها وجود الله تعالى. وقد أشار إلى هذا الحافظ ابن القيم فيما نقله عن شيخه ابن تيمية، فقال: "وسمعتُ شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: كيف يُطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟ وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الْأَذْهَانِ شَيْءٌ إِذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلِ

ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر من وجود النهار، ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته فليتهمهما."[٧]

---

[٦] بيان تلبيس الجهمية، ابن تيمية (٤/٥٧١-٥٧٢).
[٧] مدارج السالكين، ابن القيم (١/١٣٦-١٣٧).

فبما أن مسألة وجود الله تعالى هي من الحقائق البديهية التي لا تفتقر إلى البرهنة والتدليل لماذا نسعى لتقديم الحجج والأدلة لإثبات ذلك؟ الجواب هو وجود المعارضة لهذه الحقيقة البديهية، فإنه إن لم يكن هناك وجود للملحدين المنكرين لوجود الله وأدلتهم التي يقدمونها على ذلك فلا حاجة لتقديم الحجج والأدلة على وجود الله تعالى لأن معرفة وجوده سبحانه من البديهيات التي لا يتصور إنكاره. ولكن بسبب وجود الإنكار والسعي في إثبات ذلك عبر الأدلة والحجج صار من المهتمات الواجبات تقديم ما يصلح من الأدلة التي تدل على وجود الله تعالى.

وفي هذا الصدد يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وقد بيّنا في غير هذا الموضع: أن الإقرار بالخالق وكماله يكون فطرياً ضرورياً في حق من سلمتْ فطرته، وإن كان مع ذلك تقوم عليه الأدلة الكثيرة، وقد يحتاج إلى الأدلة عليه كثير من الناس عند تغيّر الفطرة وأحوال تعرض لها." [٨]

فقد بيّن رحمه الله أن الإقرار بوجود الله تعالى من الحقائق البديهية والمعارف الضرورية عند جميع البشر، فهي مسألة لا تحتاج إلى الأدلة لإثباتها مع أن الأدلة موجودة ومتوفرة بكثرة، وإنما يحتاج إلى هذه الأدلة والحجج من انحرفت فطرته فأنكر ما هو بديهي وضروري معرفته.

ومما ينبغي التنبيه إليه أيضاً في هذا المقام أن طبيعة الأدلة التي يستدل بها على وجود الله تعالى تختلف عن طبيعة الدليل الذي يطالب به دعاة الإلحاد. فإن الملاحدة لا يرون سبيلاً للوصول إلى الحقائق في غير المنهج العلمي التجريبي، فالأدلة الحسية التجريبية هي وحدها السبيل إلى معرفة الحقائق، وبما أنه لا يمكن الاستدلال على وجود الخالق للكون من خلال المنهج العلمي التجريبي فلا يمكن القول بوجود الخالق. ومن هذا المنطلق يرد دعاة الإلحاد الأدلة التي يقدمها المثبتون لوجود الله تعالى ويرون أنها لا قيمة لها على الإطلاق.

إن طبيعة الأدلة التي يستدل بها على وجود الله تعالى ليست بحسية ولا مادية حسب المنهج العلمي التجريبي كما يطالب بها دعاة الإلحاد. والسبب في ذلك أمر بسيط، وهو أن الإنسان يميّز عن غيره من المخلوقات بإرادته ليختار ما يراه صواباً مما دل عليه فطرته وعقله. فلو كان إثبات وجود الله تعالى مبنياً على أدلة حسية مشاهدة للعيان فلن يكون هناك عمل للعقل ولا الإرادة والاختيار، بل لأجبر الإنسان على التصديق والإيمان دون اختيار منه، فإن مشاهدة الشيء ليست كالإخبار به. ولذلك وصف الله تعالى ما يحصل للإنسان بعد مماته من أمور الآخرة بأنه علم يقين لأنه حينئذ يشاهد حسياً ما كان يخبر به دون المشاهدة في الدنيا.

إن الأدلة التي يستدل بها على إثبات وجود الله تعالى في ضوء العقيدة الإسلامية مستمدة من القرآن الكريم وما يوافقه من الحجج العقلية. وبهذا يُعلم أن الأدلة العقلية الدالة على وجود الله لا تناقض الأدلة السمعية، بل هي مستفادة منها. وبالتالي يجب أن تخضع الأدلة العقلية التي تقدم لإثبات وجود الله لأصول العقيدة الإسلامية ولا تتبنى مقدمات منطقية تتعارض مع هذه الأصول. فمن هذا المنطلق يُعلم أن الإيمان بالله - ومنه إثبات وجود الله - لا يستدل عليه بالنظريات والمنطقيات والفلسفات التي ابتدعها أهل الكلام وأمثالهم. فالعقل عند أهل السنة والجماعة لا يعتبر مصدراً مستقلاً في إثبات العقائد، بل مهمة العقل أن يتدبر النصوص الشرعية ويستفيد مما نبهت عليه من الأدلة العقلية التي تفيد في إثبات العقائد، والتي منها إثبات وجود الله تعالى، وليست مهمة العقل أن يبتكر أدلة جديدة تخالف أصول العقيدة الإسلامية.

---

[٨] مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٧٣/٦).

الدليل الأول: الفطرة:

قد سبق بيان أن مسألة وجود الله تعالى تعتبر من الحقائق البديهية والمعارف الضرورية التي لا يمكن لأحد أن ينكرها، وذلك لأن معرفة الله تعالى تمثل قضية فطرية ضرورية مغروسة في النفس البشري. وهذا هو المراد بدليل الفطرة على وجود الله تعالى، أي إن معرفة الله تعالى هي من المعارف الفطرية التي خلق الله الناس عليها والتي توجب الإقرار بوجوده ووحدانيته، فتكون هذه المعرفة حاصلة للإنسان ابتداء ولا يحتاج إلى النظر والاستدلال حتى يحصل عليها. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "الإقرار بالصانع فطري ضروري بديهي لا يجب أن يتوقف على النظر والاستدلال." [٩]

ولكن قد تشوّه هذه المعرفة الفطرية عند بعض الناس بحيث تغيب عنهم، فحينئذ يحتاجون إلى النظر والاستدلال لتذكيرهم بهذا المعنى الفطري المركوز فيهم، لا لتأسيسه في نفوسهم ابتداء، فإن تحصيل الحاصل ممتنع عقلاً. وفي هذا الصدد يقول ابن تيمية: "بل المعرفة وإن كانت ضرورية في حق أهل الفطر السليمة فكثير من الناس يحتاج فيها إلى النظر، والإنسان قد يستغني عنه في حال ويحتاج إليه في يحال." [١٠]

ومما ذكره ابن تيمية أن فطرية معرفة الله مما أجمعت عليها الأمم مع تنوع مللهم واختلاف مذاهبهم. قال: "إن أصل المعرفة والإقرار بالصانع لا يقف على النظر والاستدلال، بل يحصل بديهة وضرورة. ولهذا يقر بالصانع جميع الأمم مع عظيم شركهم وكفرهم." [١١]

وقد جاءت الإشارة إلى فطرية معرفة الله تعالى في عدة نصوص شرعية، فقد أخبرنا الله تعالى بأنه أودع المعرفة والإقرار به في قلوب بني آدم قبل خلقهم، فقال جل ذكره: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ) (سورة الأعراف: ١٧٢). فتدل هذه الآية على أن الخلق مجبولون مفطورون على الإقرار بوجود الله والاعتراف له بالربوبية.

ومما يدل على فطرية معرفة الله تعالى قوله سبحانه على لسان رسله: (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (سورة إبراهيم: ١٠). فلما أظهر المكذّبون للرسل كفرهم وشكهم فيما جاء به الرسل أجاب الرسل بهذا الجواب المتضمن لما هو معلوم بالفطرة والضرورة، وهو المعرفة بوجود الله تعالى واستحقاقه للعبادة وحده دون من سواه.

ومن النصوص الشرعية الدالة على فطرية معرفة الله تعالى ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟) ثم يقول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم: (فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ) (سورة الروم: ٣٠) الآية. [١٢] فدل هذا الحديث على أن كل إنسان يولد على الفطرة، أي على خلقة مقتضية للإسلام إذا ميّز وعقل، وأن معرفة الله وتوحيده هو مقتضى هذه الفطرة، إذ هي الأساس الذي يقوم عليه الإسلام.

---

[٩] بيان تلبيس الجهمية، ابن تيمية (٥٧٠/٤).
[١٠] درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية (٣٠٣/٣-٣٠٤).
[١١] بيان تلبيس الجهمية، ابن تيمية (٥٧١/٤).
[١٢] أخرجه البخاري في "الصحيح" برقم (١٣٥٨) و(١٣٥٩) و(١٣٨٥) و(٤٧٧٥) و(٦٥٩٩)؛ ومسلم في "الصحيح" برقم (٢٦٥٨)، واللفظ له.

يقول الحافظ ابن حجر ضمن شرحه للحديث وهو ينقل عن ابن القيم: "المراد أن فطرته مقتضية لمعرفة دين الإسلام ومحبته، فنفس الفطرة تستلزم الإقرار والمحبة، وليس المراد مجرد قبول الفطرة لذلك، لأنه لا يتغير بتهويد الأبوين مثلاً، بحيث يخرجان الفطرة عن القبول، وإنما المراد أن كل مولود يولد على إقراره بالربوبية، فلو خلي وعدم المعارض لم يعدل عن ذلك إلى غيره، كما أنه يولد على محبة ما يلائم بدنه من ارتضاع اللبن حتى يصرفه عنه الصارف." [١٣]

وبهذا يُعلم أن من أنكر وجود الله تعالى فهو بسبب البيئة المعارضة للفطرة التي تربى فيه، حيث هيأته تلك البيئة لصرفه عن مقتضى الفطرة التي خلقه الله عليها من المعرفة والإقرار به، كما أن الأبوان يهيئان للولد البيئة التي تصرفه عن مقتضى فطرة الإسلام فيهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.

ومن النصوص الشرعية الدالة على فطرية معرفة الله تعالى ما ورد من ظهور مقتضى هذه الفطرة واستيقاظها عند الشدائد والكوارث التي تصيب الإنسان مما يجعله يلجأ إلى الله ويخلص له الدعاء للفرج والنجاة مما أصابه. والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة ومتنوعة، وهي سيقت للرد على المشركين الذين لا يخلصون العبادة لله تعالى إلا عند تلك الشدائد لإدراكهم بأنه وحده يملك نجاتهم، مما يدل على أن مقتضى فطرة الإنسان تقر بخالقه وتعترف باستحقاقه العبادة وحده دون من سواه.

فمن تلك الآيات قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) (سورة يونس: ٢٢)، وقوله تعالى: (وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ) (سورة الروم: ٣٣)، وقوله تعالى: (وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ) (سورة الزمر: ٨).

وعلى الرغم أن هذه الآيات جاءت في سياق الرد على المشركين المقرين بربوبية الله تعالى إلا أنها تطبق على كل إنسان ولو كان منكراً لوجود الله تعالى في الظاهر. فالواقع يشهد بوجود نزعة الإيمان بالله تعالى وظهورها عند وقوع المصائب بحيث يجد الإنسان في نفسه الاتجاء إلى ربه لينجوه مما هو فيه لشعوره بأن بمقدوره وحده سبحانه إنقاذه، وهو شعور في داخل نفس الإنسان لا يستطيع دفعه مهما أظهر إنكاره لوجود الرب.

ولذلك قد بدأت تظهر دراسات حديثة في الغرب في مجالات علمية مختلفة تكشف عن هذا المكوّن الفطري في الإنسان مما يؤكد على أن الإقرار بوجود الله تعالى يرجع إلى نفس صميم الإنسان بغض النظر عن تأثير البيئة الخارجية التي يعيش فيها. [١٤]

الدليل الثاني: الخلق والإيجاد:

من أشهر الأدلة الدالة على وجود الله تعالى وأكثرها شيوعاً بين الأديان والحضارات المختلفة دليل الخلق والإيجاد، وذلك لسهولة بيان دلالته على المراد وإمكانية فهمه بيسر لجميع فئات الناس مهما كان مستوى عقلهم ووعيهم.

---

[١٣] فتح الباري، ابن حجر (٢٤٩/٣).

[١٤] انظر: "Born Believers: The Science of Children's Religious Belief" (مولودون مؤمنون: علم المعتقدات الدينية لدى الأطفال)، جاستن باريت.

وملخص هذا الدليل هو: أن حدوث الأشياء المحسوسة تدل على موجد لها قد سبّب إيجادها من العدم، وذلك لاستحالة أن يكون إيجادها من العدم إلى الوجود بذاتها أو من غير سبب. وقد صيغ هذا الدليل بعدة صور وتعبيرات متنوعة، ولكن كلها تعتمد على مقدمتين معلومتين بالضرورة المنطقية:

الأولى: أن كل حادث محسوس موجود بالفعل، وقد سبقه عدم وجود نفسه.

الثانية: أن كل حادث محسوس دال على وجود مسبّب لإيجاده من العدم.

النتيجة: بما أن الحوادث المحسوسة موجودة بالفعل فلابد لها من مسبّب قد سبّب إيجادها من العدم، ولا تفسير لذلك غير وجود إله خالق لها.

وعند التأمل في هاتين المقدمتين نجد أنها تنتدرج تحت المقدمات الضرورية التي من خاصيتها عدم إمكان الشك فيها أو الاستدلال لها. فمضمون المقدمة الأولى يدرك بضرورة الحس، فإن إثبات حدوث الأشياء المحسوسة لا يمكن الشك فيه ولا يفتقر إلى الاستدلال لإثباته. وإذا نظرنا إلى كيفية تناول القرآن الكريم لهذا الدليل نجد أن الله تعالى قد استدل بحدوث الأشياء على ضرورة أن يكون لها خالق، ولم يستدل على نفس الحدوث لكون ذلك معلوم بالضرورة وعدم افتقاره إلى دليل لإثباته.

ومن أشهر الآيات في القرآن التي تستدل بها للدلالة على دليل الخلق والإيجاد بمقدمتيه قوله تعالى: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) (سورة الطور: ٣٥). فقد قررت هذه الآية إثبات وجود الخالق من خلال حصر الاحتمالات الممكنة لحدوث الأشياء وبيان امتناع كل احتمال إلا احتمال واحد: وهو أن الله تعالى هو الخالق وحده.

يقول الحافظ ابن القيم: "فتأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق وأوضح عبارة. يقول تعالى: هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا، فهل خلقوا من غير خالق خلقهم؟ فهذا من المحال الممتنع عند كل عاقل. ثم قال: (أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)، وهذا أيضاً من المستحيل أن يكون العبد خالقا لنفسه، فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة، كيف يكون خالقا لنفسه في حال عدمه؟ وإذا بطل القسمان تعيّن أن لهم خالقا خلقهم، فهو الإله الحق الذي يستحق عليهم العبادة والشكر، فكيف يشركون به إلها غيره وهو وحده الخالق لهم؟." [١٥]

ويقول الحافظ ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: "هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)، أي: أوجدوا من غير موجد، أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً." [١٦]

ويقول الإمام محمد الأمين الشنقيطي وهو يذكر هذه الآية ضمن الأمثلة على ورود دليل السبر والتقسيم في القرآن: "فكأنه تعالى يقول: لا يخلو الأمر من واحدة من ثلاث حالات بالتقسيم الصحيح.

الأولى: أن يكونوا خلقوا من غير شيء، أي: بدون خالق أصلاً.

الثانية: أن يكونوا خلقوا أنفسهم.

الثالثة: أن يكون خلقهم خالق غير أنفسهم.

---

[١٥] مختصر الصواعق المرسلة، ابن القيم (٢٠٤/١-٢٠٥).
[١٦] تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤٣٧/٧).

ولا شك أن القسمين الأولين باطلان، وبطلانهما ضروري كما ترى، فلا حاجة إلى إقامة الدليل عليه لوضوحه. والثالث هو الحق الذي لا شك فيه، وهو جل وعلا خالقهم المستحق منهم أن يعبدوه وحده جل وعلا." [١٧]

وعند التأمل والتدبر في آية الطور والآية التي تليها يظهر أن هناك احتمال آخر إضافة إلى الاحتمالين الفاسدين المذكورين في الآية، وذلك في قوله تعالى في الآية التالية: (أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ) (سورة الطور: ٣٦). فوجه الشاهد من الآية الإشارة إلى احتمال فاسد آخر، وهو احتمال إيجاد شيء مخلوق بواسطة مخلوق آخر يفتقر إلى خالق، فإن الإنسان لم يخلق السموات والأرض ولم يخلقهما غيره مما هو مخلوق، لأن ذلك مستحيل عقلاً إذ يفتقر كل مخلوق إلى خالق حيث كان ذلك المخلوق معدوماً فاحتاج إلى من يوجده من العدم.

وقد ختمت الآية بالإشارة إلى أن إنكار الخالق ليس له مستند، وبالتالي يتقرر وجود خالق غير مخلوق. يقول ابن عاشور في تفسيره لخاتمة الآية: (بَلْ لَا يُوقِنُونَ): إضراب إبطال على مضمون الجملتين اللتين قبله، أي: لم يخلقوا من غير شيء ولا خلقوا السماوات والأرض، فإن ذلك بيّن لهم، فما إنكارهم البعث إلا ناشيء عن عدم إيقانهم في مظان الإيقان، وهي الدلائل الدالة على إمكان البعث وأنه ليس أغرب من إيجاد المخلوقات العظيمة، فما كان إنكارهم إياه إلا عن مكابرة وتصميم على الكفر. والمعنى: أن الأمر لا هذا ولا ذلك، ولكنهم لا يوقنون بالبعث فهم ينكرونه بدون حجة ولا شبهة، بل رانت المكابرة على قلوبهم." [١٨] وكذلك الأمر بالنسبة لمن أنكر وجود الخالق، فإنه لا يستند إلى حجة فيما ينكره وإنما ينكر استكباراً.

وبهذا يتبيّن أن هاتين الآيتين من سورة الطور قد تضمنت حجة في غاية البداهة والقوة على وجود الله تعالى. وخلاصة ذلك أن تفسير خلق الأشياء ينحصر في أربع احتمالات ممكنة: إما أن تُخلق من لا شيء، وإما أن تخلق نفسها، وإما أن يخلقها مخلوق آخر، وإما أن يخلقها خالق غير مخلوق. وعند مناقشة الاحتمالات الأربع يتضح أن الجواب المنطقي البديهي الذي لا مرية فيه هو أن سبب حدوث الأشياء بعد أن لم تكن هو الإله الخالق الذي خلقها وأوجدها من العدم.

ومع أن آيتي الطور أقوى ما جاء في القرآن الكريم للدلالة على دليل الخلق والإيجاد فإن هناك غيرهما من الآيات الكثيرة للدلالة عليه. فقد ذكر الله تعالى في القرآن كثيراً من المخلوقات التي خُلقت بعد أن لم تكن لها وجود سابق، كخلق الإنسان والسموات والأرض وما فيهن من الحيوان والنبات والشمس والقمر، واستدل بها على أن لها خالقا أوجدها من العدم، وهو الله الخالق المدبر. [١٩]

الدليل الثالث: الإحكام والإتقان:

قد مر في دليل الخلق والإيجاد بأن حدوث الأشياء تدل على ضرورة أن يكون لها محدِث خالق أوجدها من العدم، فالحدوث هو الصفة للمخلوقات التي استُدل بها على وجود الخالق، إذ لا يخلو شيء من المخلوقات إلا ويتصف بصفة الحدوث. أما بالنسبة لدليل الإحكام والإتقان فهو أيضاً متعلق بالنظر في المخلوقات ولكن ليس من جهة حدوثها، وإنما من جهة إتقانها الدقيق واتساق أجزائها بعضها ببعض بطريقة

---

[١٧] أضواء البيان، الشنقيطي (٤/٤٦٠-٤٦١).

[١٨] تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٧/٧٠).

[١٩] وعند التدبر في آيات القرآن المتعلقة بهذا الشأن يظهر أن خلق الإنسان هو من أكثر الأمثلة دلالة ووضوحاً في الاستدلال على وجود الله من خلال دليل الخلق والإيجاد، ولذلك قد اهتم القرآن الكريم بهذه الدلالة أشد اهتمام.

تجعل كل جزء موضوعا في موضع يتحقق فيه غاية معينة. فالصفة التي يُستدل بها على وجود الخالق من خلال هذا الدليل هي في علاقة المخلوقات بعضها ببعض. وبالتالي يظهر أن هذين الدليلين - دليل الخلق والإيجاد ودليل الإحكام والإتقان - يجعلان المخلوقات مادة للاستدلال، فأما الأول فيجعل لحظة وجود المخلوقات محلا للاستدلال، وأما الثاني فيجعل الصورة الحالية للمخلوقات محلا للاستدلال.

وملخص هذا الدليل هو: أن آثار الإحكام والإتقان الموجودة في كل مخلوق من المخلوقات تدل على وجود من صمم هذا الإحكام المنظّم والإتقان الدقيق، وذلك لاستحالة أن يوجد هذا الإحكام والإتقان في المخلوقات بذاتها أو من غير سبب. وقد ورد هذا الدليل بصيغ مختلفة، كلها تعتمد على مقدمتين معلومتين بالضرورة العقلية:

الأولى: أن الإحكام والإتقان في هذا الكون أمر مشاهد ومحسوس بالفعل، ودلائل العناية والتدبير ظاهرة فيه.

الثانية: أن هذا الإحكام والإتقان دال على وجود مسبّب يتصف بالقدرة والعلم والحكمة سبّب إيجاد الكون على هذه الهيئة من الإتقان الدقيق.

النتيجة: بما أن الإحكام والإتقان في الكون مشاهد ومحسوس بالفعل فلابد له من مسبّب يتصف بالقدرة والعلم والحكمة قد سبّب إيجاده على هذه الهيئة المتقنة، ولا تفسير لذلك غير وجود إله قادر عليم حكيم.

فيلاحظ من هاتين المقدمتين أنهما مبنيتان على المقدمات الضرورية التي من خاصيتها عدم إمكان الشك فيها أو الاستدلال لها، فهما كالمقدمتين اللتين تم تناولهما للدليل السابق بحيث تدرك المقدمة الأولى بضرورة الحس والمشاهدة وتدرك المقدمة الثانية بمقتضى الضرورة العقلية. وبيان ذلك أنه إذا تأمل الإنسام وتفكر فيما يشاهد حوله في هذا الكون يدرك أن كل مخلوق قد خُلق بجمال وإحكام وإتقان مبهرة مما تجعل حركة هذه المخلوقات متسقة تماما بحيث لا يعطل بعضها بعضا، بل تسير بحركة نظامية مرتبتة ومحكمة بقوانين لا تختلف مهما اختلف الزمان والمكان. وعلى الرغم أن هذا الأمر لا يفتقر إلى الاستدلال لإثباته، بل يدرك بمجرد الحس والمشاهدة، إلا أن تطور العلوم الطبيعية في العصر الحاضر قد انكشف لنا مظاهر هذا الإحكام والإتقان في جميع أجزاء الكون على مستوى أكثر تفصيلاً وعمقاً من مجرد المشاهدة والتفكر بالعقل البشري.

فبالتالي دل وجود هذا الإحكام والإتقان في المخلوقات على وجود المسبّب الذي سبّب إيجاد هذه المخلوقات على هذه الهيئة المتقنة، وذلك مستنداً إلى «مبدأ السببية» الذي سبق بيانه، فلا يمكن أن يكون وجود هذا الإحكام والإتقان اتفاقياً أو مصادفاً من غير سبب ولا لأمر يعود إلى طبيعة المخلوقات بحيث كان من المحتم أن تكون على هذه الهيئة المتقنة، بل لا بد أن يكون سببه وجود فاعل عليم حكيم صدر منه صنع الإتقان فحصل مفعوله وهو الصنع المتقن.

وقد ذكر الله تعالى هذا الإحكام والإتقان في خلقه للمخلوقات بالجملة، فقال تعالى: (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) (سورة النمل: ٨٨)، وقال تعالى: (ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ) (سورة السجدة: ٧)، وقال تعالى: (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ) (سورة الملك: ٣).

قال القرطبي في تفسيره للآية الأخيرة: "والمعنى: ما ترى في خلق الرحمن من اعوجاج ولا تناقض ولا تباين - بل هي مستقيمة مستوية دالة على خالقها - وإن اختلفت صوره وصفاته." [٢٠] وقال ابن القيم بعد سياقه لهذه الآية: "ومن نظر في هذا العالم، وتأمل أمره حق التأمل، علم قطعا أن خالقه أتقنه وأحكمه غاية الإتقان والإحكام، فإنه إذا تأمله وجده كالبيت المبني المعد فيه جميع عتاده، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم منضودة كالمصابيح، والمنافع مخزونة كالذخائر، كل شيء منها لأمر يصلح له." [٢١]

وقد حوت آيات كثيرة في القرآن الكريم على بعض مظاهر الإحكام والإتقان الموجودة في المخلوقات للدلالة على وجود الخالق الذي خلقها على تلك الهيئة المتقنة بمقتضى علمه وحكمته. ومن أعظم تلك المظاهر ما نجده في أنفسنا، فإنه إذا تأمل الإنسان في نفسه وكيف تم تخليقه وتركيب أعضائه بشكل محكم ومتقن، بحيث وُضع كل شيء في موضعه الذي يصلح له، علم علماً يقيناً أن هناك خالقاً عليماً حكيماً خلق الإنسان على هذه الهيئة المحكمة المتقنة، وأن ذلك لم يكن عبارة عن مجرد حظ وصدفة حيث أدت سلسلة طويلة من التطور إلى تكوين الإنسان على هذه الهيئة كما زعم ذلك دعاة الإلحاد.

ومن مظاهر الإحكام والإتقان الموجودة في المخلوقات أن الله تعالى خلق هذا الكون على هيئة محددة وبقوانين وثوابت مضبوطة بشكل دقيق جداً، فتسير الأجرام السماوية بكل دقة وانتظام، كل في فلك يسبحون. ولو كانت هذه القوانين مختلفة أو صار هناك تغيير ولو بيسط في تلك الثوابت لأدى ذلك إلى تغييرات هائلة في هيكلية الكون ولانعدم الحياة على الأرض.

ومما يتعلق بخلق الله للكون على هذه الهيئة المتقنة وبقوانين وثوابت مضبوطة بهذا الشكل الدقيق حتى تصلح الحياة البشرية على الأرض أن بذلك يُعلم أن كل ما خلقه الله في هذا الكون فإنه خُلق على هيئة مخصوصة توافق وجود حياة الإنسان. وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تُذكّر الإنسان بإنعام الله عليه بأن خلق كل شيء في هذا الكون لصالحه وسخره لخدمته ومعاشه.

قال ابن القيم بعد سياقه لبعض مظاهر الإحكام والإتقان في المخلوقات: "أفيَحسُن عند من له مُسكةٌ من عقل أن يقول: هذا كله اتفاق من غير تدبير العزيز الحكيم الذي أتقن كل شيء؟!" [٢٢]

فيظهر من كل ما تقدم بطلان دعوى الملاحدة بأن إحكام المخلوقات على هذه الهيئة المتقنة يرجع إلى مجرد مصادفة من غير سبب، وأن هذه الدعوى لا تقوم على أي مستند من الحس أو العقل ولا من الاكتشافات الحديثة في مجال علم الفيزياء الفلكي. بل يدل ذلك على أن المكابرة هي ما دفعتهم إلى رفضهم للاعتراف بأن الكون مصمم على هذا الشكل المحكم المتقن بسبب وجود من خلقه وصنعه بإرادته وقدرته وعلمه وحكمته، فإنه لا تفسير لإنكار ما يُعلم بالمشاهدة الحسية والضرورة العقلية إلا ذلك.

يقول في هذا الصدد الإمام السعدي: "فطغيانهم الشنيع وكبرهم البليغ حملهم على هذا القول الفظيع وهم أحق بالجنون؛ إذ زعموا أن هذه الموجودات العظيمة التي هي في غاية الإتقان والانتظام في خلقها وتصريفها وتدبيرها، وغاياتها الحميدة، وحكمها البديعة - زعموا أنها وليدة المصادفة وآثار الطبيعة، من غير خالق خلقها، ولا مبدع أبدعها وأتقنها؛ مجرد ما ينظر العاقل ويتصور قولهم هذا يعلم أنهم قد ابتلوا ببلية

---

[٢٠] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١١٤/٢١).
[٢١] مفتاح دار السعادة، ابن القيم (٦٢٢/٢).
[٢٢] الصواعق المرسلة، ابن القيم (١٥٦٨/٤).

هي أعظم البلايا، وكيف سولت لهم نفوسهم أن يتفوهوا بهذا القول الذي هو أكبر معبّر عن ضلالهم وجهلهم وحماقتهم، بل هو من أقوال المجانين الذين يهذون بما لا يدرون. فمن تأمل بعض المخلوقات وما أودعها الله من الخلق العجيب، والنظام المحكم، والتدابير العجيبة، جزم جزما لا يمتري فيه بكذب هؤلاء وافترائهم في جحدهم، ومكابرتهم للمحسوسات، فضلاً عن المعقولات وما جاءت به الرسل."[٢٣]

وبطبيعة الحال فإن دلائل الإحكام والإتقان الموجودة في الكون كثيرة ومنتشرة لمن تفكر وتأمل في الصنعة الإلهية في المخلوقات، وهو الأمر الذي ركز عليه الخطاب القرآني كما تبين من الأمثلة السابقة. وبهذا تظهر قوة دليل الإحكام والإتقان للاستدلال على وجود الله تعالى.

[٢٣] أصول الدين، السعدي، مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي (٨٢٦/٦).

الفصل الثالث

أدلة النبوة

لا بد من التأكد ابتداء أن الإيمان بالنبوة ليس قضية تسليمية محضة، ولا هو عبارة عن مشاعر نفسية روحية، وليس مجرد تقليد بشري قاصر. وإنما هو قضية تصديقية برهانية إيمانية، تقوم على أسس عقلية مثبتة، وبراهين استدلالية يقينية، تشترك جميعها في تأسيس الإيمان الواعي بالنبوة ومكوناتها. فالإيمان بالنبوة حقيقة وجودية عقلية، ومعتقد يوجبه العقل، وترشد إليه مسالك الاستدلال المستقيمة.

وبيان الأسس العقلية التي يقوم عليها الإيمان بالنبوة وتوضيح صورتها وعمقها تحصل حقيقته في الأمور التالية:

الأمر الأول: إمكان النبوة:

من الأسس الكلية التي يقوم عليها الإيمان بالنبوة أن النبوة من الأمور الممكنة الوقوع، أي أن إنزال الله الوحي على من يصطفيه من عباده أمر ممكن في العقل وفي الوجود، وأنه لا يتضمن مناقضة للعقل ولا تعارضاً مع قوانين الكون.

وإثبات إمكان النبوة لا يحتاج إلى أدلة خاصة، فكل الأدلة التي أقامها المؤمنون على وجود الله تدل بالضرورة على إمكانها، وأنها أمر قابل لأن يتحقق في الواقع.

وبناء على ذلك فإن المخالف في إمكان النبوة إن كان من أتباع:

١) الدين الإلحادي فإن النقاش معه لا يصح أن يتوجه إمكان النبوة بخصوصها لأنه أنكر الأصل الذي يقوم عليه التسليم بحدوثها، وهو خلق الكون، وإنما يتوجب أن يكون النقاش معه في إثبات خلق الله للكون وامتناع حدوثه من غير خالق. فإن أقر بذلك أمكن الحديث معه في تفاصيل النبوة والوحي، وإن لم يقر فلا فائدة من الحوار معه إلا في إثبات إمكانه العقلي.
٢) الدين الربوبي فحاله لا يخلو من أحد أمرين:
أ) إما أن ينازع في إمكان النبوة من جهة القدرة: فهو متناقض لأن إقراره بخلق الله الكون يوجب عليه التسليم بإمكان إيجاد ما هو دونه، والنبوة أسهل وأيسر بلا شك.
ب) وإما أن ينازع في إمكان النبوة من جهة الحكمة والرحمة والعدل، فقوله خطأ ظاهر، وبيان ما فيه من خلل وانحراف يتحصل بالكشف عن الأمور الدالة على أهمية النبوة وضرورتها.

الأمر الثاني: أهمية النبوة وضرورتها:

الإيمان بالنبوة لا يقوم على أنها مجرد أمر ممكن الوقوع فقط، وإنما يقوم على أنها أمر مهم لحياة الإنسان وضروري لاستقامة عيش النوع الإنساني. فالذي يوسّع دائرة نظره وتأمله في الوجود، وفي طبيعة الخلقة التي خلق الإنسان عليها، وما يتميّز به عن باقي أنواع الحيوان من الذكاء والتفكر والتأمل والاتصاف بالإرادة وحرية الاختيار والقصد، يدرك أن النبوة أمر ضروري جداً في حياة الإنسان وأنه يحتاج إليها احتياجاً بالغاً، بل إن احتياجه إليها لا يقل عن باقي الضرورات الحياتية الأخرى التي لا يمكن أن تستقيم

الحياة بدونها، ويدرك أيضاً أن وجود النبوة وتحققها في الواقع وإرسال الله للرسل إلى الناس هو الأمر المتوافق مع الحكمة والمنسجم مع الرحمة والعدل.

مسالك الاستدلال على النبوة:

ترجع حقيقة النبوة إلى كونها خبراً من الأخبار، فالنبي في حقيقته رجل يخبر عن غيره، وبالتالي ينطبق عليه ما ينطبق على أي مخبر آخر، وهذا يعني أن مسالك الناس في التمييز بين النبي الصادق والمدعي الكاذب لا تختلف في جملتها عن مسالكهم في التمييز بين الصادق والكاذب في سائر شؤون الحياة. فالناس يميّزون في حياتهم بين الصادق والكاذب بعلامات ودلائل كثيرة لا تنحصر، وإن فرض أنهم لم يستطيعوا تمييز الكاذب في أول أمره فإنهم لا يلبثون أن يقفوا على كذبه بعد زمن قصير، وينكشف لهم افتراؤه بعد حين، ولا يكاد يوجد كاذب استطاع أن يخفي كذبه على كل الناس في كل لحظات الزمن.[٢٤]

واعلم أن ادعاء النبوة خبر ليس كسائر الأخبار، فهو من أعظم الأخبار شأناً وأخطرها وقعاً لكونه خبراً عن الله تعالى خالق الوجود ومشروعاً يستوعب كل تفاصيل الحياة. ولأجل هذا فإن حال المدعي للنبوة منحصر بين أمرين لا ثالث لهما: إما أن يكون من أصدق الناس وأبرهم فيما إذا كان صادقاً، وإما أن يكون من أكذب الناس وأخبثهم فيما إذا كان كاذباً، ولا يمكن أن يوجد حال غير هذين الحالين أبداً.[٢٥]

إثبات صدق نبوة محمد ﷺ:

بعد التأمل في سيرة النبي ﷺ ودعوته يمكن انحصار أصول الأدلة الدالة على صدق نبوته في ستة أنواع أساسية:

النوع الأول: الكمال الشخصي والأخلاقي، فقد بلغ النبي ﷺ غاية ما يمكن أن يصل إليه النوع الإنساني من الكمال في جميع الأوصاف المتعلقة بالأشخاص من جهة أنسابهم وأخلاقهم وسلوكهم وحياتهم. ومن أهم الصفات وأكثرها تعلقاً بالموضوع صفتي الصدق والأمانة، فإن النبوة قائمة على الإخبار عن الله، وقد بلغ النبي ﷺ في هاتين الصفتين مبلغاً عظيماً من الكمال، فلم يعهد عليه طول عمره أنه كذب كذبة واحدة، أو أنه خان أمانة واحدة، حتى كان يلقب في قومه بالصادق الأمين.

ومن أعظم الشواهد الدالة على ذلك أنه ﷺ حين قام في قومه يبلغهم رسالة الله إليهم، قال لهم: (أرأَيْتُم لو أخبَرْتُكم أنَّ خَيلًا بسَفْحِ هذا الجبلِ تُريدُ أنْ تُغِيرَ عليكم، أصدَّقْتُمُوني؟) قالوا: نَعم! قال: (فإنِّي {نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} [سبأ: ٤٦]) فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم، أما دعوتمونا إلا لهذا؟[٢٦]

فشهد له قومه بأنهم ما جربوا عليه كذبة في حياته، وفي ذلك أبلغ الدلالة على كماله في هذه الصفة، فلم تستطع قريش أن تتهم النبي ﷺ بالكذب، حتى أن عمه أبا لهب حين اعترض عليه لم يتهمه بالكذب، وإنما لجأ إلى السب والاستخفاف ودعوى الاشتغال بما ليس بمهم.

---

[٢٤] انظر: النبوات، ابن تيمية (٧٨١/٢).
[٢٥] انظر: شرح الأصفهانية، ابن تيمية (ص ٥٣٩).
[٢٦] أخرجه البخاري في "الصحيح" برقم (٤٧٧٠).

ومن الشواهد أيضا أن هرقل لما سأل أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله ﷺ، كان فيما قال له: أوَ كنتم تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. فقال هرقل: فما كان ليَدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل.[٢٧]

النوع الثاني: الكمال التشريعي، فقد بلغ نظام التشريع الذي جاء به النبي ﷺ الغاية في الكمال، والنهاية في الصلاح، والذروة في المحاسن والإتقان، بحيث إنه يبعد في العقل أن يكون صادراً من رجل واحد لم يتعلم الكتابة ولا القراءة، ولم يُعرف بكثرة الأسفار والتجارة وإقامة العلاقات مع الثقافات الأخرى المختلفة.

فقد أتى النبي ﷺ بدين تشريعي يعد من أضخم الأديان في التشريعات وأوسعها في المجالات التي توجه إليها، ومع ذلك فقد حوى الإسلام من الكمال والمحاسن والصلاح والرحمة والعدل ألواناً وأصنافاً، مما يدل على أنه ليس من وضع إنسان واحد أو عدد من الناس، وإنما هو من عند الله تعالى، المتصف بالعلم الشامل والحكمة البالغة والرحمة الواسعة والعدل العام.

والإقرار بكمال الشريعة وحسنها، وخروجها عن معهود الخلق، لا يقتصر على علماء المسلمين ومفكريهم، وإنما شهد بذلك عدد من علماء الغرب وغيرهم، وأقروا بكمال ما جاء به النبي ﷺ وعلوه في الحسن والصلاح.[٢٨]

النوع الثالث: التجرد الإصلاحي، فقد كان النبي ﷺ يقوم أثناء مسيرته الدعوية الإصلاحية بأمور لا يفعلها إلا من يعتقد اعتقاداً جازماً أن الدعوة التي يقوم بها ليست لذاته ولا لمصلحته، وإنما هو مبلغ لرسالة، ويتحرك في جميع أحوال دعوته وهو يعتقد أنه منصور ومؤيَّد من عند الله تعالى.

فالنبوة قائمة على الادعاء بأن الرسول ما هو إلا مبلغ عن الله، فالكاذب إن ادعى هذه الدعوى لا يمكنه أن يتقول على الله ويجزم بأنه سيفعل كذا وكذا من الأفعال، ولا يمكنه أن يقدم على كل تحدياته ومواجهاته وهو يجزم بأن الله سينصره وسيحفظه من المهالك، فإن الإخبار عن أفعال الله بالجزم لا يمكن أن يقدم عليه إلا الصادق الأمين لكون تلك الأفعال من الأمور الغيبية التي لا يمكن لأحد العلم بها.

ولهذا النوع شواهد كثيرة من حياة النبي ﷺ في بلوغه درجة اليقين في الدلالة على صدقه في نبوته وأنه مرسل من عند الله، فمنها:

الأول: أن النبي ﷺ حين نزل عليه قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) (سورة المائدة: ٦٧)، أمر من كان يحرسه من الصحابة بالانصراف عنه، وذكر أن الله سيحفظه من أعدائه. فكيف بكاذب أن يأمر الذين يحرسونه من أعدائه المتربصين بالانصراف بحجة أن الله سيحفظه منهم، وهو يعلم أنه كاذب؟ وكيف يفعل ذلك رجل قد رماه أعداؤه كلهم عن قوس واحدة؟

الثاني: أن النبي ﷺ كان يقدم الأخبار الجازمة عن أحوال المخالفين له في المستقبل ويحدد مساراتها بثقة وثبات، كما أخبر عن مصير أبي لهب بأنه سيدخل النار (سورة المسد)، ومعنى ذلك أن أبا لهب لا

---

[٢٧] أخرجه البخاري في "الصحيح" برقم (٢٩٤٠) ومسلم في "الصحيح" برقم (١٧٧٣).
[٢٨] انظر: قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل.

يمكنه بحال أن يعتنق الإسلام ولا يمكنه أن يعلن إسلامه. وهذا الإخبار لا يمكن أن يقدم عليه كاذب لأن مثل هذا الخبر فيه تعليق لمصير الدعوة كلها بالمواقف التي تظهر من الآخرين، وفيه فتح لباب التشكيك في الدعوة، فإن أبا لهب يمكنه أن يعلن إسلامه ويظهره، ويكون بذلك أبطل الخبر الذي أخبر به النبي ﷺ، ومع ذلك فقد بقي أبو لهب على كفره حتى مات، فحصول هذا منه دليل على أن ذلك الخبر ليس من عند النبي ﷺ.

النوع الرابع: انخرام السنن الكونية بين يديه، فقد كانت تقع بين يدي النبي ﷺ أحداث كثيرة خارقة للسنن الكونية وخارجة عن مقدور الإنس والجن، ولا يستطيع فعلها أحد منهم. وهذا النوع من الأدلة من أشهر البراهين الدالة على نبوته والمثبتة أنه مرسل من عند الله، ومن أكثرها انتشاراً بين الناس.

وقد بلغت المشاهد التي انخرمت فيها السنن الكونية بين يدي النبي ﷺ أعداداً كبيرة، فمن ذلك: تكثير الطعام القليل، تحرك الأشجار من مكانها مجيئها إلى النبي ﷺ ثم رجوعها إلى ما كانت عليه، حنين جذع النخلة الذي كان يخطب عليه وإصداره صوتاً يشبه صوت الناقة، إلى غير ذلك.

وهذه الأحداث لم تقع مرة أو مرتين حتى يقال إنها وقعت مصادفة أو نحو ذلك، ولكنها وقعت عشرات المرات وفي مجالات مختلفة ومتنوعة، فيبعد جداً أن يكون ذلك وقع اتفاقاً من غير قصد.

النوع الخامس: الإكثار من الإخبار بالغيوب الصادقة، فقد كان يخبر النبي ﷺ بأمور غيبية كثيرة جداً، ثم تقع كما أخبر بصورة متطابقة. وهذا الصدق في الإخبار عن الغيوب خارج عن مقدور الجن والإنس معاً، ولا يستطيع أحد منهم أن يخبر بذلك الكم من الأخبار الغيبية ثم تكون كلها صادقة لا ينخرم منها خبر واحد.

وهذا النوع من الأدلة لا يختلف عن النوع السابق من حيث الكثرة والانتشار في الآفاق، ومن تلك الأخبار: إخباره عن مصارع كفار قريش في يوم بدر قبل نشوب المعركة وتعيينه لمكان موت كل واحد منهم، وإخباره بأن ابنته فاطمة أول من يموت من أهل بيته بعد وفاته، وإخباره بأن المسلمين سيفتحون بيت المقدس بعد موته، وغير ذلك مم الأخبار التي أخبر بها ووقعت تماماً كما أخبر.

وإخباره بهذه الغيبيات وتحققها كما أخبر لم يقع مرة أو مرتين حتى يقال إنه وقع اتفاقاً أو بمعاونة الجن أو نحو ذلك، وإنما بأمور كثيرة وفي مجالات مختلفة، ثم وقعت كما أخبر من غير أن يُختلق منها شيء. وهذا الاطراد في الصدق مع الكثرة يؤكد أنه لم يأت بتلك الأخبار اتفاقاً وصادفة ولا من عند أحد من الجن لأن الواقع تثبت أن أخبارهم لا تكون صادقة في كل الأحوال ولا في أكثرها، وإنما يصدقون في بعضها، كما يدل عليه حال كثير من السحرة والكهنة والعرافين.

ويزيد من قوة دلالة هذا النوع من الأدلة أن النبي ﷺ ربما كان يخطىء في بعض آرائه واجتهاداته الشخصية، كما وقع في حادثة تأبير النخل[٢٩] وغيرها، ومع ذلك كله فإنه لم يخطىء أبداً في أي خبر من أخباره عن المغيبات.

النوع السادس: الإعجاز بالقرآن الكريم، فقد جاء النبي ﷺ بكلام من جنس كلام الناس، وذكر أن الله أنزله إليه وجعله دليلاً على صدقه، وجعل علامة ذلك أنه لا يستطيع أحد من الإنس والجن أن يأتي بمثله

---

[٢٩] أخرجه مسلم في "الصحيح" برقم (٢٣٦١).

في بلاغته وبيانه وفصاحته وإتقانه ومضمونه، وأعلن التحدي على ذلك، وحث الناس على معارضته، فلم يستطع أحد منهم أن يأتي بما ينقض ذلك التحدي، ولا أن يخرج دليلاً يثبت به أن ما جاء به النبي ﷺ ليس من كلام الله.

وهذا الدليل هو أصل الأدلة التي تقوم عليها نبوة النبي ﷺ والأساس الذي تعتمد عليه، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى في قوله: ما من الأنبياء نبي إلا أُعطِيَ ما مِثلُه آمَن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة.[٣٠]

ودلالة القرآن الكريم على صدق نبوة النبي ﷺ تقوم على أصلين أساسيين:

الأول: استحالة أن يكون النبي ﷺ هو مصدر القرآن، والدلائل العقلية والتاريخية والحالية الدالة على هذا الأصل متعددة.

الثاني: ثبوت عجز الجن والإنس عن الإتيان بمثل القرآن، فإذا كان النبي ﷺ من جنس البشر ويملك من الصفات ما يملكون، فكيف أمكنه أن يأتي بكلام من جنس كلام البشر، ويعجز كل الإنس والجن عن الإتيان بمثله، مع تكرار التحدي عليهم؟!

قال تعالى: (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (سورة الإسراء: ٨٨).

---

[٣٠] أخرجه البخاري في "الصحيح" برقم (٤٦٩٦) ومسلم في "الصحيح" برقم (١٥٢).

الفصل الرابع

أدلة صحة القرآن

بعد أن نظرنا إلى مفهوم النبوة وكيف أنها أمر ممكن وضروري، وبعد أن توصلنا إلى أنواع مختلفة من الأدلة التي تبين أن محمدًا ﷺ كان بالفعل نبيًا ورسولًا مرسلاً من عند الله، نأتي الآن لننظر إلى الوحي الذي جاء به النبي ﷺ وكيف تكون نسبته إلى الله نسبة صحيحة.

عندما ننظر إلى كل احتمالات أصل القرآن يمكننا حصرها في ثلاثة:

١- محمد ﷺ نفسه.
٢- قام غيره بتأليفه.
٣- أنزله الله تعالى.

وبالنظر في الأدلة والحجج يظهر أن الاحتمال الأخير هو الاحتمال الوحيد لمصدر القرآن الكريم. ويمكن تلخيص تلك الأدلة في الآتي:

الدليل الأول: الكمال الشخصي والأخلاقي للرسول المبلغ عن الله.

فقد بلغ النبي ﷺ غاية ما يمكن أن يصل إليه النوع الإنساني من الكمال في جميع الأوصاف المتعلقة بالأشخاص من جهة أنسابهم وأخلاقهم وسلوكهم وحياتهم. ومن أهم الصفات وأكثرها تعلقاً بالموضوع صفتي الصدق والأمانة، فإن النبوة قائمة على الإخبار عن الله، وقد بلغ النبي ﷺ في هاتين الصفتين مبلغاً عظيماً من الكمال، فلم يعهد عليه طول عمره أنه كذب كذبة واحدة، أو أنه خان أمانة واحدة، حتى كان يلقب في قومه بالصادق الأمين.

ومن أعظم الشواهد الدالة على ذلك أن هرقل لما سأل أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله ﷺ، كان فيما قال له: أوَ كنتم تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. فقال هرقل: فما كان ليَدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل.[٣١]

وإذا قلنا جدلاً بأن محمداً ﷺ هو الذي ألف القرآن بدافع المصالح الشخصية والسعي للرئاسة والسلطة – وهذا عادة ما يكون السبب لظهور مدعي النبوة – فأولاً: كان لدى النبي ﷺ المكانة والشرف في قومه مما يغنيه عن السعي في طلبه، وثانيًا: عندما عرض عليه الرئاسة مقابل التوقف عن الدعوة لم يقبل ذلك، فقالوا له: " فإن كنتَ إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنتَ إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا (نجعلك سيدنا وزعيمنا)، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا.[٣٢]

---

[٣١] أخرجه البخاري في "الصحيح" برقم (٢٩٤٠) ومسلم في "الصحيح" برقم (١٧٧٣).
[٣٢] انظر: السيرة النبوية، ابن هشام (٢٩٦/١).

فإذا كان الواقع أن النبي ﷺ كان يرغب في الرفعة الشخصية والرئاسة لماذا رفض هذا العرض وفضّل حياة الزهد والتواضع والبساطة والاضطهاد، وحتى الهجوم العدائي من قبل أولئك الذين شعروا بالتهديد من قبل رسالة القرآن؟

الدليل الثاني: كان النبي صلى الله عليه وسلم أمّيّاً.

كم عدد الحوادث في التاريخ التي قام فيها رجال صحراء بسطاء بإخراج كتاب مثل القرآن بكل ما فيه من تعقيد ودقة؟ إذا سلمنا جدلاً أن هذا أمر ممكن لو تعلّم شخص منذ صغره وكان موهوباً بالذكاء، فما الجواب عن كون النبي ﷺ لم يكن متعلماً، أي أنه كان معروفاً حتى لخصومه الذين نشأ بينهم أنه لم يتعلم القراءة أو الكتابة منذ ولادته. وقد وصف الله تعالى نبيه بهذا الوصف حيث قال: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ) (سورة الأعراف: ١٥٧).

وما يزيد الأمر دهشة أن القرآن لم يُراجع أو يُصحح كما يحصل لمؤلفات الناس، لأنه لم يكن بحاجة إلى أي مراجعة أو تصحيح، فكيف تم بيان المجالات الواسعة التي ذُكرت في القرآن بمثل هذه الدقة من قبل عربي في ذلك الزمن بدون تعليم رسمي أو حتى القدرة على قراءة المصادر النادرة التي قد تكون موجودة في بيئته في هذه الموضوعات؟ أين ومتى أنتج التاريخ مؤلفاً أمّيّاً لمثل هذا الكتاب؟

الدليل الثالث: تحمل السخرية.

كانت هناك عدة فرص لأن يأتي النبي ﷺ بآيات من عند نفسه ليخرجه من الحرج والسخرية، فمثلاً بعد أن نزل أول الوحي كان الناس ينتظرون سماع المزيد، ولكن النبي ﷺ لم يتلق شيئاً جديداً منذ أشهر، وهكذا بدأت قريش تستهزئ به قائلاً: **"إن ربه ودعه (أي هجره)!"** واستمر هذا حتى نزلت سورة الضحى مبيّنة أن ربه لم يدعه: (وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) (سورة الضحى: ١-٣).

فكان بإمكان النبي ﷺ أن يجمع شيئاً ويقدمه على أنه آخر وحي نزل عليه لإنهاء السخرية، ولكنه لم يفعل ذلك.

ومن الأمثلة على هذا أيضاً واقعة الإفك حيث رمى المنافقون زوجته عائشة بالزنا، فكان يمكن للنبي ﷺ أن يختلق شيئاً ويزعم أنه الوحي ينزل عليه تبرئة لزوجته، ولكنه صبر وتحمل ألم ذلك الموقف وانتظر أياماً عديدة حتى جاء الوحي من الله يُبرء فيه عائشة رضي الله عنها كما في آيات سورة النور.

الدليل الرابع: انتقاد القرآن للنبي ﷺ.

هناك عدة آيات تنتقد النبي ﷺ، وكانت في بعض الأحيان شديدة اللهجة. كيف يمكن لنبي كاذب أن يلوم نفسه في حين أن ذلك قد يجعله يقع في خطر فقدان احترام أتباعه وتخلي أتباعه عنه؟

فمن الأمثلة على ذلك:

قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (سورة التحريم: ١).

وقوله تعالى: (عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى) (سورة عبس: ١-١٠).

فكان من الممكن للنبي ﷺ أن يخفي هذه الآيات، ولكنه قرأها وبلّغها بصدق وأمانة. فإذا كان النبي ﷺ هو من ألّف القرآن لكان حريصاً على أن لا يكون هناك شيء يمكن أن يعرض للخطر اكتساب الأتباع. فبما أن القرآن – في عدة مواضع – يرد على النبي ﷺ في بعض القضايا التي أصدر فيها رأياً خاطئاً ففيه دليل على أنه لم يكن من تأليفه.

الدليل الخامس: أوجه التشابه بين القرآن والكتب الأخرى.

التشابه بين القرآن والإنجيل لا يعني بالضرورة أن الأول نُسخ من الأخير، بل فيه دليل على أن كلاهما يستندان إلى مصدر ثالث مشترك، وهو الله.

فكيف نرد الدعوى بأن القرآن نسخ من الإنجيل؟

أولاً: لم يكن النبي ﷺ متعلماً حتى تستقيم هذه الدعوى كما سبقت الإشارة إليه.

ثانياً: كان اتصاله ﷺ مع علماء أهل الكتاب محدوداً جداً.

ثالثاً: كانت رحلاته ﷺ إلى مناطق اليهود والنصارى محدودة للغاية.

رابعاً: ما دار بينه وبين أهل الكتاب كان بعد أكثر من ثلاث عشرة سنة من بدء الوحي.

خامساً: النسخة العربية من الإنجيل لم تكن موجودة في زمن النبوة.

سادساً: هناك اختلافات عقائدية خطيرة بين القرآن والإنجيل، فلا تستقيم دعوى النسخ.

سابعاً: ظل خصوم النبي ﷺ يراقبونه عن كثب باحثين عن أي شيء يثبت أنه كاذب، ولم يتهموه مرة واحدة بأنه نسخ القرآن من كتب أخرى.

الدليل السادس: المضمون الإعجازي للقرآن.

إذا نظرنا إلى كثير مما ذُكر في القرآن لأدركنا أنه لم يكن من الممكن أن يعرف أحد هذه الأشياء في الجزيرة العربية في القرن السابع، ناهيك شخص غير متعلم. وتشمل هذه الأشياء: أخبار مفصلة عن الماضي، أخبار عن المستقبل، والحقائق العلمية.

هل يمكن تصور أنه كان هناك شخص قبل أكثر من ١٤٠٠ عام بإمكانه أن ينتج كتاباً كالقرآن فيه مثل هذه المعلومات، ناهيك شخص لم يتعلم أبدًا؟

الدليل السابع: الأسلوب الإعجازي للقرآن.

القرآن الكريم تحفة أدبية للغة العربية، كان ولا يزال منقطع النظير في فصاحته، وأسلوبه الإيقاعي هز أسس مجتمع كان يفتخر بمهاراته الأدبية اللغوية، وكانت تقام مسابقات كل عام في مكة المكرمة لمن

يستطيع قراءة الأشعار الأطول والأكثر بلاغة من الحفظ، فلما نزل القرآن توقفت كل هذه المسابقات، حيث لم يعد هناك منافسة بعد نزوله!

ولما أنكرت قريش القرآن بدعوى أنه من كلام شاعر حثهم الله على أن يأتوا بمثله، فأولاً تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة، ثم قال الله تعالى: (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (سورة الإسراء: ٨٨).

فهذه المعجزة من أقوى البراهين على أن القرآن يجب أن يكون كلام الله وليس كلام النبي ﷺ، فلو واجه العرب التحدي واجتازوا لشوّهوا الرسول ﷺ وكان يمكن أن يكون أكبر أداة دعاية ضده، ولكن لم يحدث شيء مثل هذا، بل بدلاً من ذلك فضّل القوم المواجهة والقتال.

الدليل الثامن: حفظ القرآن.

حفظ القرآن الكريم نوعين:

النوع الأول: حفظ آياته كما قال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (سورة الحجر: ٩).

النوع الثاني: حفظه من التناقضات كما قال تعالى: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا) (سورة النساء: ٨٢).

فعندما نقارن هذين النوعين من الحفظ بالكتب السابقة، مثل التوراة والإنجيل، نجد أنه لم يتم حفظ أي منهما في النوعين جميعاً، فتلك الكتب محرفة لفظاً ومعنى.

الفصل الخامس

محاسن الإسلام ومميزاته

بعد الاطلاع على بعض البراهين الدالة على صحة الإسلام، من المهم التركيز على تلك الجوانب التي تجعل الإسلام فريداً ومميّزاً عن بقية الأديان والأنظمة الأخرى المحدثة. هذا لأن بعض المسلمين قد يعتقدون أن جميع الأديان صالحة وصحيحة، ويمكن لكل أحد أن يتبع أي دين شاء، لأن جميعها تحث الناس على فعل الخير والابتعاد عن الشر، فلماذا نقول بأن الإسلام هو الدين الحق الوحيد؟

للإجابة على ذلك نقول:

أولاً: من غير المنطقي الادعاء بأن جميع الأديان متساوية لأنها تناقض بعضها البعض، ولا يمكن أن تكون جميعها صحيحة في نفس الوقت، فالحق دائماً يكون واحد فقط، فإذا كان هناك نظام عقائدي يحتوي على أمور تم إثبات صحتها يجب أن يكون أي نظام عقائدي منافس بالادعاءات المعاكسة خاطئاً بلا شك. قال تعالى: (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) (سورة الإسراء: ٨١).

ثانيًا: بعد إثبات أن الإسلام هو الحق بناء على المناقشات السابقة، هناك نقاط إضافية يمكن أن نذكرها لتوضح لنا كيف يكون الإسلام فريداً ومميّزاً عن جميع الأديان الأخرى، مما يثبت أنه هو الدين الحق الوحيد من عند الله محفوظ إلى يومنا هذا.

ستركز النقاط التالية على بعض محاسن الإسلام ومميّزاته:

أولاً: النظرة الكلية للإنسان والكون والوجود:

إن المتأمل في كثير مما يُثار من الاستشكالات والاعتراضات ضد أحكام الشريعة يجد أنها منبعثة من تجزئة النظر إلى الإنسان أو إلى الحياة والوجود، وناشئة من عدم فهم التكامل المراعى في تشريعات الإسلام والذي يتجاوز إطار المادة الضيق. فحين شرع الله تعالى خمس صلوات في اليوم والليلة، وأمر بأداء الصدقة للفقراء، وفرض الإمساك عن الطعام في رمضان، وكتب الحج إلى مكة؛ لم يشرع هذه الأعمال لتكون حِزمة من الواجبات يؤديها الإنسان دون إدراك لما تحققه من مقاصد وغايات وحِكم عظيمة مرتبطة بعلاقة الإنسان بربه.

فمثلاً قال تعالى عن مقصد الصلاة: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) (سورة طه: ١٤)، أي: لتذكرني فيها. وهكذا قال النبي ﷺ في الحج: إنما جُعل الطواف بالكعبة، وبين الصفا والمروة، ورمي الجمار: لإقامة ذكر الله.[٣٣] فجميع ما أمر الله بها وشرع لنا مقصدها وغايتها العظمى أن تربطنا به سبحانه.

ثانياً: فهم حقيقة التعبد في الإسلام:

إن النظر إلى التعبد في الإسلام على أنه ممارسات وطقوس دون خضوع القلب وحبه للمعبود، أو على أنه خوف ورهبة دون حب ورجاء، أو على أنه حب وعشق دون خضوع وخوف من المعبود؛ لا يؤدي

---

[٣٣] أخرجه أبو داود في "السنن" برقم (١٨٨٨) والترمذي في "السنن" برقم (٩٠٢).

إلى الفهم الحقيقي لقضية التعبد في الإسلام. إن عدم تذوق جمالية التعبد والخضوع والمحبة لله من أكبر دواعي التأثر بالشبهات المثارة ضد وجود الله وكماله، ومن ثَم الوصول إلى الإلحاد والإنكار.

فإذا أدرك الإنسان التصور الصحيح للتعبد في الإسلام سيقف على صورة معرفية لمحاسن الإسلام فيها أسمى معاني الجمال القلبي، ومع ذلك فهي لا تغني عن التذوق العملي الحقيقي لهذا الجمال، فإن الخبر ليس كالمعاينة، فإن من يؤدي عبادة الله على الوجه الذي أراد ويحسن في ذلك مع علم وفهم، فإن الله يهبه من جمال الحياة وحسن المعرفة وسعادة الروح ما لا يمكن أن يعبّر عنه بكلام يكشف ما يجده، كما قال من قال من السلف: إنا نجد من اللذة والسعادة ما لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.[٣٤]

ثالثاً: محاسن الإسلام في براهينه:

إن دين الإسلام قد جاء مبرهَناً على صحة كل أصوله ببراهين قوية متعددة متنوعة، وهذا ما لا تجده في أي دين آخر، ولا في أي توجه أو تيار أو مذهب فكري. فإذا بحثت في براهين صحة سائر الأديان والطوائف ونظرت إلى أصولها ومدى استقامة الدليل على إثباتها، ثم عملت مثل ذلك في الإسلام فلن تجد أي عناء في الحكم بترجيح الإسلام على ما سواه.

فمن الأمثلة على ذلك البراهين التي يثبت بها علماء المسلمين صحة نسبة القرآن إلى الله تعالى وكيف أنها براهين بديعة وقاطعة. ثم إذا قارنت ذلك بأشهر كتاب سماوي آخر، وهو ما يُعرف بالكتاب المقدس فستجد مفارقة عظيمة في إثبات النص الأصلي وحفظه.

رابعاً: وضوح عقيدة الإسلام في الخالق:

إن الإسلام قد تميّز على سائر الديانات بوضوح العقيدة في الإله من جهة الكمالات المتعلقة به. ولذا لا يجد العقل تكلفاً في قبول الاعتقاد الإسلامي في الله سبحانه، بخلاف الخرافات والأساطير الموجودة في تصورات كثير من البشر تجاه الإله. وهذه القضية من أظهر القضايا في دين الإسلام، والاستدلال عليها لا يحتاج إلى كبير عناء، فالقرآن من أوله إلى آخره تمجيد وتعظيم وتنزيه لله سبحانه؛ فالسورة التي أخبر النبي ﷺ أنها أعظم سورة في القرآن (سورة الفاتحة) هي التي تبدأ بحمد الله، ثم ذكر بعض أسمائه وصفاته، وذكر العلاقة بين المخلوق والخالق بأنه لا يُعبد إلا هو ولا يُستعان إلا به. وكذلك أعظم آية في القرآن (آية الكرسي) كلها متعلقة بالإله من أولها إلى آخرها مثبتاً لله الصفات اللائقة بجلاله وتنزيهاً له عن النقائص وما لا يليق به. وكذلك الأمر مع السورة التي تعدل ثلث القرآن (سورة الإخلاص)، فإنها مع قصرها تضمنت أعظم تعظيم وتنزيه لله سبحانه وتعالى.

بينما إذا نظرت فيما جاء عن الخالق في سائر الأديان فلن تحتاج إلى كبير جهد لتدرك الفارق بين الإسلام وبين غيره، فإذا كانت اليهودية والنصرانية – التي هي أحظى الديانات بتراث الأنبياء بعد الإسلام – قد وصفت الإله ونسبت إليه ما لا يليق به فالنقص في غيرها أولى وأحرى.

خامساً: وجود النموذج العملي المطبق للحقائق النظرية:

---

[٣٤] حلية الأولياء، أبو نعيم (370/7).

إن الإسلام دين جمع بين المعرفة وتطبيقها، ولم يكتف بتقديم مجموعة من الأوامر والشرائع والأخلاق دون إرسال من يمثل ذلك واقعياً. فقد أوصى الإسلام بالأخلاق وفرض الشرائع وقدم النموذج الذي التزمها وطبقها، وذلك كله متمثل في حياة الرسول ﷺ العملية وسيرته التي نجد فيها الامتثال التام والالتزام الكامل لما أمر الله به في القرآن. ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: كان خلقه القرآن.[٣٥]

ووجود هذا النموذج العملي المطبق لشرع الله الملتزم بأوامره غاية الالتزام من أهم ما يسهّل على النفوس تطبيق الإسلام والالتزام به، ويُبعد عن النفوس النظرة الأفلاطونية الخيالية. ولعل من الحكمة الإلهية في اختيار النبي من البشر تسهيل عملية الامتثال والاقتداء والتطبيق، فلو كان من غير البشر لقيل أن من طبّق تعاليم الله إنما هو كائن له خصائص مختلفة عن صفات البشر تعينه على هذا الامتثال وتسهّله عليه. قال تعالى: (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا * قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا) (سورة الإسراء: ٩٤-٩٥).

وقد ابتلى الله نبيه ﷺ بأنواع من الابتلاءات الشديدة حتى يدرك الناس أن هذا الرجل الشريف إنما هو بشر يعرض له ما يعرض للبشر من المرض والتعب والمصائب وغير ذلك، ولم يمنعه ذلك أن يكون أعبد الناس وأتقاهم لربه، فإذا كان بإمكانه ذلك مع كل ما واجهه من الابتلاءات الشديدة فبإمكان غيره من الناس أن يقتدي به مع أنه لن يواجه مثل ما واجه الرسول ﷺ من الابتلاءات الشديدة.

سادساً: التجديد المتّزن:

إن الاتّزان والتوسط والاعتدال عند حملة الأفكار التجديدية الهادمة لما قبلها يُعد أمراً صعباً، فإن مواجهة الأفكار البالية التي يتعصب أصحابها لها مع بطلانها في نظر معارضيها تدفع المجددين الناقمين على هذه الأوضاع السائدة إلى نوع من المغالاة في أفكارهم الجديدة، وإلى المبالغة في ردة الفعل تجاه الأقوال والأفكار القديمة، حتى ولو كان شعار هذه الحركات التجديدية تسامحياً، فإنك ترى في أحداث التاريخ ما يؤكد نسيان هذه الشعارات من قِبل حملة الأفكار التجديدية في خضم مواجهتهم لما ثاروا عليه من القديم.[٣٦]

ولكن إذا نظرت إلى الإسلام – الذي جاء هادماً لأصول الجاهلية، مستبدلاً إياها بنظام تشريعي واعتقادي شمولي تام – فإنك تجد فيه الاهتمام البالغ باعتدال أتباعه، وبتوجيههم للاتّزان، وبإبعادهم عن المبالغة أو الزيادة في الأخذ به، بل والتوعد والتشديد على من يخالف روح الاعتدال والتوسط، كما في قوله ﷺ: إياكم والغلو،[٣٧] وقوله: ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه،[٣٨] وقوله: هلك المتنطعون،[٣٩] وغير ذلك من النصوص الكثيرة في هذا المعنى.

ومن الأمثلة التطبيقية لتعامل النبي ﷺ مع حماس بعض أصحابه لهذا الدين الجديد الذي أنقذهم من ظلمات الجاهلية: حادثة الثلاثة الذين أراد أحدهم أن يعتزل النساء فلا يتزوج أبداً، وأراد الثاني ألا يأكل اللحم

---

[٣٥] أخرجه مسلم في "الصحيح" برقم (٧٤٦).
[٣٦] مثل محاكم التفتيش الإسبانية، والثورة الفرنسية، والثورة الشيوعية الماركسية.
[٣٧] أخرجه النسائي في "السنن" برقم (٣٠٢٣) وابن ماجه في "السنن" برقم (٣٠٢٩).
[٣٨] أخرجه البخاري في "الصحيح" برقم (٣٩).
[٣٩] أخرجه مسلم في "الصحيح" برقم (٢٦٧٠).

أبداً، وأراد الثالث أن يهجر النوم على الفراش؛ كل ذلك بنية حسنة وقصد تعبدي وإرادة التخلص من الملذات الدنيوية، فنجد النبي ﷺ وقف أمام حماسهم بقوة مذكراً إياهم بأهمية الاتّزان والاعتدال، وذلك بالسير على سنته واتباع هديه، فقال: أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني.[٤٠]

[٤٠] أخرجه البخاري في "الصحيح" برقم (٤٧٧٦) ومسلم في "الصحيح" برقم (١٤٠١).

الفصل السادس

نظرية المعرفة في الإسلام

حتى الآن ، قمنا بتغطية العديد من الموضوعات المتعلقة بالركائز الأساسية للإسلام ، مثل الإيمان بالله والنبوة والقرآن ، ودعمنا معتقداتنا بـ "البراهين" و "الأدلة".

وقبل الاسترسال لا بد لنا من وقفة مع مفهوم "الدليل" ، فالكثير من الناس ينظرون إلى "الدليل" وما يشكله بناء على ما تعلموه في المدارس ؛ فالدليل لديهم يكون من خلال الملاحظة ، إنه ما يمكنك رؤيته أو سماعه أو شمه أو لمسه ؛ إنه دليل مادي بحت.

السبب الذي يجعل الكثير منا يفكر بهذه الطريقة هو مدى تقدم العالم وماديته ، لدرجة أننا لم نعد مهتمين بالنظر إلى أي دليل غير مدعوم علميًا.

علاوة على ذلك ، فالملحدون اليوم يفرضون هذا النوع من الأدلة على الجميع ، قائلين لنا أن العلم قد دحض وجود الذات الإلهية ، وبناءً على ما نعرفه من العلم ، فإن الله غير موجود.

لذلك عندما تأتي إلى هؤلاء الأشخاص بأدلة على وجود الله أوعلى النبوة أو القرآن ، فإنهم لا يكلفون أنفسهم عناء الاستكشاف والتحقق لمعرفة مدى صحة هذه البراهين ، وبدلاً من ذلك يطلبون أدلة علمية. لماذا؟ لأن هذا هو كل ما يؤمنون به.

هذا أمر ليس بجديد... يضرب الله لنا أمثلة عديدة على كيفية تعامل الكفار مع الأدلة المؤيدة للاعتقاد بأن الأنبياء والمرسلين هم بالفعل مرسلون من عند الله. فبدلاً من التمعن في هذه الأدلة والتفكير في قوة حجيتها ، فإنهم سيطلبون أدلة أخرى مادية يمكن ملاحظتها في الطبيعة ، لأنه وفقًا لهم ، هذه هي الطريقة الوحيدة لإثبات أن ما يدعونه صحيحاً ، وأضافوا أنه إذا تم تقديم هذه الأدلة ، فسيؤمنون على الفور. قال تعالى:

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُون) [البقرة ٢:٥٥]

كما يقول الله تعالى:

(وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا) [الإسراء ١٧: ٩٠-٩٣]

ما نتعلمه من هذا كله هو أن مثل هؤلاء لا يبحثون حقًا عن دليل للاعتقاد ، ولكن هذه مجرد أعذار يقدمونها ذريعة لعدم الإيمان والإذعان للحق ، ولهذا يخبرنا الله تعالى أنه حتى لو أرسل كتابًا يمكنهم لمسه وقراءته ، فإنهم لن يؤمنوا:

(وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) [الأنعام ٦: ٧]

ويقول الله تعالى:

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) [الأنعام ٦:١٠٩]

فلماذا لم يرسل الله لنا الدليل المادي على المنهج العلمي؟ الجواب بسيط: لقد خلقنا الله جنس البشر وميزنا عن جميع المخلوقات الأخرى بقدرتنا على اختيار ما نراه صوابا بناءً على الفطرة والعقل. فإن كان وجود الله مبنيًا على دليل يمكن ملاحظته كأن نرى الله مباشرة ، فلن يكون هناك أي وظيفة لعقلنا وإرادتنا الحرة ؛ سنضطر جميعًا إلى الإيمان دون أي خيار ، لأن رؤية الشيء لا تضاهي السماع عنه.

هذا هو بالضبط السبب الذي يجعل الوقت متأخرا جدا لفرصة الإيمان أو التوبة في لحظة الموت عندما يرى الشخص الملائكة قادمة لقبض روحه ، لأنه الآن يرى بعينيه ما لم يؤمن به طوال حياته (بينما كان لديه قبل ذلك الإرادة الحرة للإيمان والتصديق بذلك)

لهذا السبب لم يرسل الله هذا النوع من الأدلة المباشرة التي يمكن ملاحظتها لإثبات عالم الغيب. هذا يقودنا الآن إلى نقطة ما هو المقصود بـ "الدليل" ، أو كيف تصل إلى استنتاج أن شيئًا ما صحيح؟ ما هي المعرفة؟ هذا ما يسمونه نظرية المعرفة أو نظرية المعرفة والحقائق.

أولئك الذين يعتقدون أن الطريقة الوحيدة للوصول إلى حقيقة أي شيء هي من خلال المنهج العلمي هم مؤمنون بما يعرف بالعلموية ؛ فهم يعتقدون أن شيئًا ما حقيقي فقط إذا أمكن إثباته علميًا ، مما يعني بطبيعة الحال أنهم لا يؤمنون بأي شيء يسمى عالم الغيب (أو العالم الميتافيزيقي). فقد وصل الأمر ببعضهم إلى محاولة إثبات كيانات مثل الوعي والروح من خلال الوسائل والتفسيرات العلمية. في الحقيقة ، هم يريدون استبدال الدين بالعلم.

كيف نثبت أن الحقائق يمكن إثباتها بغير الطريقة العلمية؟

في الأساس ، يتفق العلماء والفلاسفة حتى الغربيون منهم على أن العلم مقصور على العالم المرئي ، وأن الحقائق الأخرى تعتمد على مصادر أخرى للمعرفة غير العلوم. على سبيل المثال ، يعتمد التاريخ (كمجال للمعرفة) على الروايات والتقارير ، وليس على الأدلة المادية القوية. على سبيل المثال ، المؤرخون لا يطلبون جثة الإسكندر الأكبر لإثبات وجوده في التاريخ ، أو يقرون أن حدثًا معينًا قد وقع بناءً على الصور ومقاطع الفيديو، بل يعتمدون على التقارير والروايات.

إذن ، نعم ، بعض الأمور يتم إثباتها من خلال العلم ، بينما يتم إثبات أمور أخرى بالمنطق ، والبعض الأخر يتم إثباته من خلال السرد. يقول ابن تيمية: طرق الوصول إلى المعرفة ثلاث: الملاحظة والفكر والجمع بينهما: الشهادة. فهنالك أشياء معينة لا تُعرف إلا بالشهادة ، مثل كل ما يعرفه الإنسان من شهادات أهل الثقة ، مثل رواية رواها رواة عدة ، وكذلك ما يعرف من خلال شهادة الأنبياء ".[٤١]

فكل ما نعرفه عن الله أو عن عالم الغيب مبني على الدليل وليس الدليل العلمي ، لأن الدليل العلمي محصور في العالم المرئي فقط.

هذه هي الطريقة التي نرد بها على الملحدين: لمجرد أننا لا نستطيع إثبات وجود شيء غير مرئي من خلال المنهج العلمي ، فهذا لا يعني تلقائيًا أنه غير موجود. الأمر الوحيد الذي يثبته ذلك أنه لا يمكننا الوصول إلى

٤١ دار تعارض العقل والنقل، ابن تيمية (١٧٨/١)

نتيجة مفادها أنه صحيح من خلال المنهج العلمي. لذلك يجب أن يكون هناك مصدراً آخراً يقودنا إلى معرفة ما هو موجود خارج هذا العالم المادي الذي يمكن ملاحظته ، وهنا يأتي دور الوحي.

الآن ، إذا فكرنا في كل ما هو موجود ، فيمكننا القول أنه يندرج تحت فئتين:

١) ما يمكن ملاحظته بواسطة حواسنا البشرية (العالم المادي).

٢) ما لا يمكن ملاحظته بحواسنا البشرية (العالم الميتافيزيقي / غيرالمرئي).

ينقسم العالم غير المرئي أيضًا إلى فئتين:

أ) ما يثبت بالعقل البشري مثل الذات الإلهية ، المعجزات ، إلخ.

ب) ما لا يمكن للعقل البشري إثباته ، ولكن يمكن إثباته بالوحي كالملائكة ، الجنة ، النار ، العرش ، إلخ.

إليك كيف نثبت صحة " دليلنا غير العلمي ": عندما نقول (كما في الفئة الأولى) أن العقل البشري يمكنه إثبات وجود شيء غير مرئي أو غير ملاحظ ، فإننا لا نعني أنه تم إثباته بشكل مباشر بدون وسيط ، بل يتم إثباته من خلال آثار يمكن ملاحظتها تربطنا بذلك الشيء في الغيب.

لذلك ، يمكن إرجاع كل أمر أو ظاهرة يمكن ملاحظتها إلى سبب ، ويمكن أن يكون هذا السبب في بعض الأحيان ماديًا ، وفي أحيان أخرى غير مادي. هذا يعيدنا إلى الدليل المنطقي على أنه لا يوجد شيء بدون سبب أولي.

لماذا يجب أن نقول أن هناك سبب غير مادي رغم أننا لا نستطيع إثباته من خلال الملاحظة؟ لأنه لا شيء يمكن ملاحظته (مثل الخلق أوآثار المعجزات) يمكن أن ينشأ من تلقاء نفسه أو من لا شيء.

أما الصنف الثاني (ما لا يثبته العقل البشري إلا بالوحي) فلا يمكن إثباته بالعقل وحده لأن الوسيط المادي مفقود بين العقل والخلق غير المرئي (الملائكة ، الجنة ، الجحيم ، العرش ، إلخ). لهذا السبب نحتاج إلى الوحي ليخبرنا عن تلك الحقائق.

بمجرد أن نفهم هذا ، نرى أهمية الوحي كمصدر صحيح للأدلة ، ومرة أخرى ، فقط لأننا لا نستطيع إثبات وجود الوحي ماديًا وعلميًا ، فهذا لا يعني أنه لم يحدث وأنه غير موجود. إن طريقة إثبات حقيقة أي وحي لا تتم من خلال المنهج العلمي ، بل من خلال النظر في مدى صحة ادعاء النبي عندما يدعي تلقيه الوحي من الله ، والذي يقوم كله على التفكير المنطقي (وهو ما ناقشناه سابقًا). لذلك ، حينما نثبت صدق النبي ، يستلزم ذلك أن يكون صادقًا في تلقيه الوحي من الله.

من ذلك كله ، نرى كيف أن الوحي هو مصدر صحيح وحقيقي للأدلة لإثبات أي أمر يتعلق بعالم الغيب ، وأن الإيمان بعالم الغيب (عندما يستند إلى الوحي الحقيقي) لا يقوم على المشاعر أو الإيمان الأعمى دون أن يقتنع صاحبه منطقيًا بحقيقة ذلك.

بناءً على ما سبق ، نرى كيف أن الدليل أكثر من مجرد بعض البيانات المادية التي يمكن ملاحظتها والتي تثبت وجود أشياء خارج هذا العالم المادي. لا يمكن للدليل الاعتماد على العلم لأنه خارج نطاق المنهج العلمي والملاحظة.

لكن هنا سؤال نختتم به: كيف وصلنا إلى هذا الوضع حيث يُطلب منا إثبات ما لا يمكن ملاحظته من خلال العلم؟

يعود الأمر إلى مئات السنين إلى عصر الإصلاح في أوروبا حيث أراد المجتمع الغربي تحرير نفسه من قمع الكنيسة والنخبة الدينية اللتين كانتا تفرضان وجهتي نظرهما على الجميع حتى لو عارضتا الاكتشافات العلمية الحديثة. لذلك فبمجرد أن قاموا بتحرير أنفسهم من قبضة الكنيسة ، قرروا تجاهل أي تعاليم دينية تمامًا حتى يتمكنوا من إثباتها علميًا. هذه هي الفترة التي حدث فيه التحول حيث بدأ المجتمع يبحث في كل ما يُزعم أنه صحيح على أنه يجب إثباته علميًا ، خاصةً عندما تتعارض النصوص الدينية مع العديد من النتائج العلمية. تلك هي اللحظة التي أسقطوا فيها الدين والكتاب المقدس من حساباتهم كمصادر للمعرفة والأدلة على أي مسألة.

من ناحية أخرى ، إذا توصلنا إلى المفهوم الإسلامي لإثبات ما هو موجود خارج هذا العالم المادي ، نجد أن الإسلام يؤكد على أهمية أصالة الوحي ، وكيف يستحيل أن يكون فيه أي تشويش أو تناقض في روايته لنا. من هذا ، يمكننا أن نرى الفرق الهائل بين الإسلام وجميع الأديان الأخرى في كيفية إثبات ما نؤمن به، فلا أحد يعرف الغيب إلا الله.

الفصل السابع

مصادر ومنهجية استنتاج الأدلة في الإسلام

الآن ننتقل إلى النظر للأدلة في الإسلام. من أين نستمد نحن المسلمون معتقداتنا؟ في الحقيقة ، ليس فقط معتقداتنا ، بل كل شيء في الإسلام. على ماذا تستند جميع التشريعات والأحكام؟ ما هي مصادرنا وكيف نتعامل مع هذه المصادر؟

إن مصادر الإسلام التي تقوم عليها جميع المعتقدات والأصول والأحكام ما هي إلا وحي من الله (وقد سبق أن ناقشنا أهمية الوحي وصحته كمصدر للدليل).

والوحي في الإسلام يتمثل في : القرآن والسنة. وهذا ما يدل عليه الإسلام كدين سماوي: تستند أركانه إلى نصوص معصومة نزلت من السماء ، ممثلة في آيات القرآن ونصوص السنة النبوية الصحيحة.

ومن هذين المصدرين استنبط العلماء مبادئ أخرى يمكن أن تستند إليها الأحكام. وقد أطلق عليها بعض العلماء اسم "مصادر الشريعة" أو "مصادر التشريع الإسلامي". وهما: الإجماع والقياس.

قال الإمام الشافعي: " ليس لأحد أن يقول هذا حلال أو هذا حرام إلا على أساس العلم ، وأصل العلم نص في القرآن أو السنة ، أو الإجماع ، أو القياس ".[٤٢]

لكن ما نريد أن نركز عليه هو المصدر الأساسي: الوحي (نصوص القرآن والسنة) ؛ كيف يفترض بنا أن نتعامل مع هذه النصوص؟ كيف يفترض بنا أن نفهمها؟ خاصة في ظل الاتهامات الموجهة للإسلام وتعاليمه ، أوالاكتشافات العلمية التي يبدو أنها تتعارض مع هذه النصوص.

إن فهم النصوص وتفسيرها بطرق مختلفة هو ما أدى إلى الانقسام في هذه الأمة ، مثلما أدى إلى انحراف الأمم السابقة. وهو ليس بأمر جديد ، بل هو قديم قدم الأزل ، وقد تنبأ الرسول (□) أن أمتنا ستتبع خطى تلك الأمم السابقة ، لكن الاختلاف الوحيد هو أن الله قد وعد بالحفاظ على هذا الدين من الفساد بخلاف سابقيه.

وكلما حدث انقسام في الأمة حول الاختلاف في فهم النصوص، كان لأهل السنة والجماعة منهجاً متيناً وثابتاً في كيفية تعاملهم مع هذه النصوص. فيما يلي إرشادات تستند إلى تلك المنهجية:

---

[٤٢] الرسالة، الشافعي (ص. ٣٤).

أولاً: تعظيم النصوص والخضوع لها

الحقيقة المحزنة التي نجدها لدى الراغبين في تفسير نصوص القرآن والسنة هي أنهم لا يحملون أي قيمة لهذه النصوص ، لأنهم لو فعلوا ذلك لما حاولوا تفسيرها على حسب آرائهم وأهوائهم ورغباتهم ، ولهذا يدعي من يدرس الإسلام في الأوساط الأكاديمية الغربية أنه يجب أن نتعامل مع هذه النصوص بموضوعية ونشك فيها قبل أن نقبلها.

بينما تجد آخرين يتجاهلون هذه النصوص بكل بساطة ولا يخضعون لها كما ينبغي لهم ، كما هو موضح في القرآن:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [النساء ٤:٦٥]

هذا الخضوع هو خضوع كامل ، لا يرفض شيئًا من هذه النصوص ، ولا يرفض معانيها ، ويبحث عن معاني تتماشى مع طريقة تفكير المرء أو تربيته أو محيطه.

ثانيًا: الطبيعة الكاملة لهذا الدين

على من يطلع على نصوص الكتاب والسنة في محاولة لفهمها أن يدرك أن ما أرسله الله كاملاً من كل الوجوه. ليس فيه شيء مفقود ، وليس هناك ما يلزم إضافته.

لم يفارق النبي صلى الله عليه وسلم الدنيا حتى أتم الله له هذا الكمال:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) [المائدة ٥: ٣]

ومعنى هذا أن أي ادعاء بإضافة أمرإلى الدين على وجه التقرب إلى الله وعبادته ، هو بدعة حذرنا منها النبي صلى الله عليه وسلم عندما قال: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة[٤٣]"

إذن ما يعنيه هذا الاكتمال هو أننا يجب أن نكتفي بما لدينا من الوحي لإثبات أي أمر يتعلق بالدين ، وليس هناك حاجة للرجوع لغيره.

---

[٤٣] سنن أبي داوود (٤٦٠٧).

ثالثًا: عدم وجود تناقضات بين النصوص وبعضها البعض

يجب أن نؤمن بأن النصوص المعروضة أمامنا ليس بها ولا بينها وبين بعضها البعض أي تناقضات ، سواء كانت من القرآن أو من السنة الصحيحة. بدلاً من ذلك ، فإن أي تناقض ظاهر سببه عدم فهمنا لهذه النصوص، وليس في النصوص نفسها.

وذلك لأن المصدر واحد: وهو الله عز وجل . قال تعالى:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) [النساء ٤:٨٢]

هذا ما يجب على كل مسلم أن يؤمن به ، وإيمان المرء لا يكتمل إلا إذا كان يؤمن بذلك.

لذلك عندما نجد أن شيئًا يبدو متناقضًا ، فإننا نحتاج إلى اتخاذ الخطوات التي وضعها العلماء للوصول إلى الحقيقة وإزالة اللبس وتوضيح ما يبدو متناقضًا.

رابعًا: لا تناقض بين الوحي الحقيقي والعقل السليم

ما يعنيه هذا هو أن العقل البشري السليم الذي لم يتم التشويش عليه أو إفساده سيوافق دائمًا على كل ما يأتي في الوحي ، طالما أنه منسوب إلى الوحي بشكل أصيل. هذا يعني أنه كلما بدا أن هناك تناقض ، يجب أن نقدم الوحي على عقولنا. لماذا ا؟ لأن عقولنا من خلق الله ، ولن يرسل الله لنا وحيًا يخالف ما منحنا إياه.

كامتداد لهذه النقطة ، يمكننا أن نقول الشيء نفسه عن العلم ؛ أنه لا يوجد تناقض بين الوحي الأصيل والحقيقة العلمية ، وعندما يكون هناك تناقض فإنه يكون تناقضا ظاهرياً ، وليس تناقضًا حقيقيًا. وذلك لأن الله هو خالق هذا الكون والقوانين التي تحكمه ، والاكتشافات العلمية ما هي إلا اكتشافات لتلك القوانين.

لذلك يتعين علينا النظر في كل ادعاء مقدم وتفحص ما يلي:

إذا تم إثبات أحد الأمرين (الوحي أو الحقيقة العلمية) بشكل صحيح وتم فهمه بشكل صحيح ، فإننا نقدم المتصل بسند موثوق.

هناك العديد من الأمثلة على ذلك ، مثل:

أ) الأرض تدور حول الشمس (فهم النصوص غير صحيح ، بينما أن هذه حقيقة علمية ثابتة).

ب) تطور الإنسان (تم تأسيس خلق آدم بشكل أصيل ومفهوم بشكل صحيح من النصوص ، في حين أن نظرية التطور ليست حقيقة).

خامساً: تفسير النصوص بنصوص أخرى

المصدر الأساسي لفهم نصوص الوحي هو من خلال الوحي نفسه. كيف؟ بالبحث عن نصوص أخرى في القرآن والسنة تشرح النص الذي لا نفهمه.

على سبيل المثال ، يذكر الله في مواضع كثيرة من القرآن أن إبليس امتنع عن السجود لآدم مع الملائكة. تخبرنا الكتب المقدسة المسيحية واليهودية أنه كان ملاكًا ساقطًا ، ولكن عندما نعيد النظر في القرآن ، نجد أن الله يخبرنا:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) [الكهف ١٨:٥٠]

الأمر ذاته بالنسبة للسنة. فإنها تشرح الكثير من آيات القرآن التي تُركت عامة:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [النجم ٥٣: ٣-٤]

سادساً: الجمع بين جميع النصوص الخاصة بموضوع معين

إن أحد الأسباب الشائعة لانحراف الناس في تفسير نصوص القرآن والسنة هو أنهم يؤمنون أولاً بفكرة ثم يأتون إلى النصوص بحثاً عن أدلة داعمة. لذلك فإنهم يقومون باختيار النصوص التي تدعم وجهة نظرهم وفكرتهم فقط ، ويتجاهلون باقي النصوص (التي تتحدث عن نفس الموضوع) والتي تتعارض مع هذا المنظور والفكرة المسبقة التصميم التي قدموها.

وقد أدى هذا أيضًا إلى ضلال العديد من الطوائف، فعند تناولهم لقضية معينة فإنهم يستشهدون فيها فقط بالنصوص التي تدعم مواقفهم متجاهلين تلك النصوص التي تعارضها. تشمل الأمثلة على ذلك القدريين والجبريين (الذين يمثلون طرفي النقيض من الطيف في مسألة قدرالله) ، والمعتزلة والمرجئة (الذين يمثلون طرفي النقيض من الطيف لمفهوم الإيمان).

لكن عندما نجمع كل النصوص حول أي قضية معينة ، نجد أن موقف أهل السنة والجماعة دائمًا ما يكون متوازنًا بين مختلف الأطراف التي تمسكت بمجموعة واحدة فقط من النصوص ، مع تجاهل النصوص الأخرى الخاصة بهذه القضية.

سابعاً: تفسير النصوص بفهم الصحابة والتابعين ومن تبعهم

عندما يختلف الناس في فهمهم للأحداث ، فإنهم عادة ما يوافقون على الحصول على تأكيد من شهود العيان ، لأن تفسيرهم سيكون دائمًا هو الأكثر دقة. وهكذا عاش الصحابة الوحي وشهدوا كل آية نزلت على النبي (□) ، ثم تعلموا مباشرة من النبي صلى الله عليه وسلم ما تعنيه كل آية وما لا تعنيه. ثم نقلوا هذا الفهم إلى الجيل التالي ، وهكذا...

بالنسبة لنا أن نأتي الآن بعد ١٤٠٠ عام ، ونتبنى فهمًا يتعارض مع فهمهم هو انحراف واضح ودليل على كيفية اتباع شخص ما لأهوائه ورغباته في محاولة فهم النصوص بناءً على فهمه الخاص الذي يناسب شخصه.

هذا من المنظور المنطقي، أما المنظور القرآني فقد خص الله الصحابة بأنهم من يجب اتباعهم لرضاه عنهم:

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [التوبة ٩: ١٠٠]

ومن المهم أن نلاحظ هنا أن ما نقصده باتباع الصحابة هو اتباعهم في الأمور التي اتفقوا عليها جميعًا ، ومتابعة طريقتهم في التعامل مع النصوص ، لا نقصد متابعتهم في كل قضية ثانوية ربما اختلفوا بشأنها.

ثامناً: أن تكون النصوص مفهومة باللغة العربية

أنزل الله القرآن بلغة عربية واضحة:

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) [يوسف ١٢: ٢]

(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) [الشعراء ٢٦: ١٩٥]

والنبي صلى الله عليه وسلم يتكلم بلغة عربية صافية. لذلك من المستحيل محاولة فهم الأمور التفصيلية المعقدة لهذا الدين بلغة تمت ترجمة النصوص إليها ، لأن تلك الترجمة كانت محاولة بشرية لتفسير هذه الكلمات ، وستظل المحاولات البشرية دائمًا بها عيوبها. لذلك ، عندما يكون هناك خلاف حول معنى كلمة ما ، نحتاج إلى إرجاعه إلى المعنى في اللغة العربية.

هذا لا يعني أنه لا يمكنك أن تكون مسلمًا دون فهم اللغة العربية بشكل كامل ، ولكن المقصود هنا أنه لا يمكنك محاولة تفسير نصوص القرآن والسنة وفهمها ، وأن تصبح عالماً فيها ، إلا إذا لديك تلك الأداة الأساسية ألا وهي اللغة العربية أولاً.

الفصل الثامن

الأخطاء الكامنة خلف الادعاءات الشائعة ضد الاسلام

عندما ننظر إلى العديد من الشكوك والادعاءات ضد الإسلام ، نجد أن منهج الحجة المستخدم في كل منها يختلف من حيث قوته – فبعضها يمكن دحضه بسهولة من قبل المسلم العادي ، بينما يتطلب البعض الآخر مزيدًا من التحليل وليس من السهل الرد عليه.

وبالتالي ، ستساعدنا الخطوات الخمسة التالية على تحديد الأخطاء الأساسية في العديد من هذه الحجج. يتم ترتيب هذه الخطوات بالترتيب ، بحيث أنه عندما لا تتمكن من تحديد الخطأ باستخدام الخطوة الأولى ، تنتقل إلى الخطوة التالية ، وهكذا ، حتى تصل إلى الخطوة الأخيرة.

الخطوة الأولى:

التحقق من أن الادعاء لا يتعارض مع حقيقة ما نعتقد أنه صحيح ، والحذر من "مغالطة رجل القش".

تستند العديد من المزاعم ضد الإسلام إلى افتراءات وأكاذيب مرتبطة بالإسلام لدرجة أن الناس يبدأون في الاعتقاد بأن هذا هو ما يمثله الإسلام حقًا. على هذا النحو ، فإن هذه المزاعم ليست هجومًا على الإسلام ، ولكنها هجوم على ما يُزعم أنه يمثل الإسلام.

كيف نتعامل مع مثل هذه الادعاءات؟ ببساطة من خلال عدم إهدار الكثير من الوقت والطاقة في تفنيدها ، ولكن فقط الإشارة إلى كيف أن هذه ادعاءات كاذبة وأن الإسلام لا يرتبط بها بأي حال من الأحوال.

أمثلة:

أ) الإسلام دين وثني لأن المسلمين يعبدون الكعبة وحجرها.

ب) يعبد المسلمون إله القمر.

ج) الإسلام دين للعرب فقط.

كيف نرد على هذه الادعاءات؟ من خلال توضيح أن أيا من هذه الادعاءات ليس صحيحا ، وأنها مبنية على تحريف الحقائق وهي أمثلة مثالية على "مغالطة رجل القش".

"مغالطة رجل القش" هي شكل من أشكال الحجة تقوم على إعطاء الانطباع بتفنيد حجة الخصم ، بينما تدحض في الواقع حجة لم يقدمها هذا الخصم في البداية.

على المسلم أن ينتبه لهذه المغالطات ولا يتعامل مع الخصم بتقديم الحجج والأدلة المضادة قبل تقييم مدى صحة الادعاء.

الخطوة الثانية:

التأكد من وجود دليل يدعم الشك وأنه ليس مجرد اتهام بدون أدلة داعمة

جميع الشكوك والادعاءات على الإسلام أو أصوله تنقسم إلى قسمين:

١) الاتهامات المنتشرة دون الاستشهاد بأدلة.

٢) الادعاءات التي تؤيدها البراهين.

كيف نتعامل مع النوع الأول؟ نطلب من خصمنا إثبات صحة ادعائه. إذا لم يستطع ، فإن الادعاء لا قيمة له وبالتالي ينهار. والسبب في ذلك هو أننا إذا قبلنا الادعاءات دون طلب الدليل ، فيمكن للمدعي أيضًا تقديم مزاعم دون دعمها بإثبات. وبهذه الطريقة ، لا يوجد معنى للدليل والبرهان ، وبالتالي لا يمكننا أبدًا الوصول إلى حقيقة أي شيء.

الخطأ الذي يرتكبه بعض المسلمين هو أننا نسارع إلى مواجهة مثل هذه المزاعم بأدلتنا الخاصة التي ستدحض المزاعم. هذه ليست الطريقة الصحيحة للتعامل مع مثل هذه الشكوك ، لأن عبء الإثبات يقع على عاتق المدعي ، وليس المدعى عليه.

في الواقع ، في الفقه الإسلامي المنهجي ، عند الحديث عن طرق المناقشة ، يشيرون إلى أن المدعي إذا لم يكن قادرًا على دعم ادعائه بإثبات (إفهام) (توجيه ضربة / إسكات الخصم) ، فيقولون أن مثل هذه الطريقة كافٍ لإنهاء النقاش.

أمثلة:

أ) الإسلام دين دموي عنيف.

ب) الإسلام يضطهد المرأة.

ج) الإسلام يشجع العبودية.

د) لا توجد طريقة لإثبات صحة نصوص الحديث التي يُزعم أن عمرها ١٤٠٠ عام.

كيف نرد على هذه الادعاءات؟ لا نبدأ بمحاولة إثبات خطأ هذه الادعاءات بالحجج المضادة أو البراهين. على سبيل المثال ، لا نبدأ بالقول إن الإسلام دين متسامح ومسالم ، وهنا كل الأدلة على ذلك. بدلا من ذلك نسأل الخصم: ما هو دليلك على أن الإسلام دين عنيف متعطش للدماء؟ إذا لم يستطع تقديم دليل لدعم ادعائه، فإن ادعاءه لا قيمة له وبالتالي ينهار. ومع ذلك ، إذا توصل إلى بعض الأدلة ، فهذه هي النقطة التي ننتقل عندها إلى الخطوات التالية.

الخطوة الثالثة:

التحقق من صحة الدليل المبني عليه الادعاء بعد النظر إليه على أنه: إثبات واستنتاج

إذا جاء الخصم الذي يدعي ضد الإسلام مع الدليل على دعواه ، فالواجب أن نفصل الدليل عن الاستنتاج ، وكذلك أن نتحرى كيف استعان بالدليل. ثم نلقي نظرة على الدليل لنرى مدى صحته. نقوم بذلك من خلال أربع طرق:

١) ما مدى صحة الدليل؟

٢) هل تم فهمه بشكل صحيح (بغض النظر عما إذا كان يؤدي إلى الاستنتاج أم لا)؟

٣) هل تم اختياره بشكل صحيح (من بين جميع البراهين)؟

٤) هل هو إثبات صحيح لمن يستعمله؟

أولا: ما مدى صحته؟ تستند العديد من الشكوك والادعاءات إلى أدلة غير صحيحة.

مثال: الادعاء بأن النبي (□) أراد الانتحار بالقفز من قمة جبل بعد انقطاع الوحي. هذه القصة مذكورة في صحيح البخاري.[٤٤] فنشرح كيف أن البخاري لم يذكرها إلا لبيان ضعف الرواية بعد أن ذكر الحديث أولاً على أصل الرواة الصحيح (الذي لم ترد فيه هذه القصة).

أمثلة أخرى: تلك الأحاديث التي يبدو أنها تتعارض مع العلم الحديث ، مثل حديث أن لحم البقر مرض. وهذا مبني على حديث ضعيف.

[٤٤] صحيح البخاري (٦٥٨١)

ثانيًا: هل تم فهمه بشكل صحيح؟ حتى إذا كان الادعاء مبنيًا على دليل حقيقي ، فيمكن إسقاطه من خلال توضيح كيف لم يفهم الخصم الدليل بشكل صحيح ، إما بناءً على اللغة أو السياق أو عوامل أخرى ينتج عنها فهمًا خاطئًا.

مثال:

(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) [الكافرون ١٠٦: ٦]

غالبًا ما تُستخدم هذه الآية لمحاولة إثبات أن الذين يتبعون ديانات أخرى لا ينبغي أن يطلق عليهم كفار. فنرد بالقول أن هذا الفهم غير صحيح لأنه يتعارض مع سياق السورة (تبدأ الآية الأولى بدعوتهم بالكفر).

مثال آخر:

(وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ) [البقرة ٢: ١٩١]

غالبًا ما يتم االاستشهاد بهذه الآية في محاولة لإثبات مدى عنف الإسلام وتعطشه للدماء. نرد عليهم بأن نطلب منهم العودة إلى سياق الآية بالنظر إلى الآيات السابقة. جاء فيه أن هناك معاهدة سلام بين المسلمين والمشركين بمكة. خُرقت هذه المعاهدة من قبلهم ، ومُنحت لهم مهلة أربعة أشهر للرجوع ، وإلا أعلنت الحرب عليهم. ثم تأتي هذه الآية ويقتبس منها في معركة. لذلك نحن نفهم أن اللغة المستخدمة شرسة لرفع معنويات المقاتلين أثناء الحرب.

ثالثًا: هل تم اختياره بشكل صحيح (من بين جميع البراهين)؟ في بعض الأحيان يمكن أن يكون الدليل موثوقًا به ومفهومًا بشكل صحيح ، لكن الشخص الذي يستخدمه انتقائي ، يتجاهل العديد من البراهين الأخرى تحت نفس الموضوع التي تعطي صورة متوازنة.

مثال:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) [البقرة ٢: ٢٥٦]

غالبًا ما يتم ذكر هذه الآية في محاولة لإثبات حرية الدين وعدم إخبار الناس بأنهم محكوم عليهم بالخسران إذا لم يقبلوا الإسلام. نرد بإحضار كل تلك الأدلة الأخرى التي تظهر واجب قبول الإسلام وكيف سيعاقب أولئك الذين لا يقبلون وأنه سيحكم عليهم بالخسران المبين. أما هذه الآية بالذات فهي تتعلق بعيش غير المسلمين في بلاد المسلمين. نقبل الجزية منهم مقابل بقائهم على دينهم.

ومثال آخر: أولئك الذين يدعون أننا لا نمتلك إرادة حرة بالاستشهاد بتلك الأدلة من الكتاب والسنة التي تظهر أن الله قد قدر كل شيء ولا شيء خارج عن قدره وإرادته. نرد بتقديم جميع البراهين الأخرى التي تؤكد إرادة الإنسان الحرة.

رابعاً: هل هو حجة صالحة لمن يستعملها؟ هناك من سيطلق مزاعم ضد الإسلام من خلال الاستشهاد بأدلة على أنهم لا يؤمنون حتى بصحته في الأصل. هذا يدل على تناقضهم.

مثال: يعتقد الملحدون الجدد أن المصدر الوحيد للأدلة هو الدليل العلمي المادي. فهم لا يؤمنون بالحجج الفلسفية المنطقية طالما أن العلم لا يثبت وجود الله. بدلاً من ذلك ، مهما كانت الحجج المنطقية المستخدمة لوجود الله ، فإنهم يحاولون العثور على أخطاء فيها. ثم نجدهم يحاولون التوصل إلى حجج منطقية لمحاولة دحض وجود الله.

مثال آخر: حاول اللاهوتيون المسيحيون في العصور الوسطى تشويه سمعة الإسلام بالقول إنه على الرغم من أن النبي (□) كان نبيًا حقيقيًا من عند الله ، إلا أنه أرسل فقط إلى العرب وليس إلى البشرية جمعاء. لذلك يزعمون أن القرآن لم يرسل إلا للعرب. نرد بالقول: إنك إذا وافقت على أن القرآن من عند الله ، فإن الله في القرآن يذكر صراحة أنه أرسل محمدًا (□) للبشرية جمعاء.

الخطوة الرابعة:

النظر في العلاقة بين الإثبات والاستنتاج ، ونزع المصداقية عن ما لا يعتبر نتيجة ضرورية

بعد التحقق من أن الادعاء مدعوم بإثبات ، ثم التأكد من اتباع الخطوات للتأكد من صحة الدليل ، فإن الخطوة التالية هي النظر في العلاقة بين الدليل المستخدم والاستنتاج الذي يحاول الخصم الوصول إليه باستخدام هذا الدليل. لذلك إذا أوصل الدليل للاستنتاج اللازم ، فإننا ننتقل إلى الخطوة التالية ، وإلا إذا لم يكن هناك استنتاج حتمي ، تسقط الحجة.

مثال: الملحدين الذين يحاولون استخدام نظرية التطور لإثبات عدم وجود الله. نرد بالقول: إن هذا ليس استنتاجًا ضروريًا لأن هناك العديد من المخلوقات غير الحية الأخرى في هذا الكون. لذا فإن إنكار وجود الله على أساس شرح كيفية نشأة الكائنات الحية فقط يُظهر كيف أن هذا ليس استنتاجًا لازماً. هذا إذا قلنا من باب الجدل أن النظرية صحيحة من البداية.

مثال آخر: الملحدين الذين يحاولون استخدام "مشكلة الشر" لإنكار وجود الله. نرد بالقول: إن وجود الشر لا يدحض وجود الله ، بل يدحض فقط وجود الله الرحيم والقدير.[٤٥]

الخطوة الخامسة:

التأكد من أن الاستنتاج لا يتعارض مع حقيقة أخرى أقوى

قد يستخدم بعض خصومنا ما يعتبرونه دليلًا حقيقيًا، بل قد يزعمون أن الدليل يُفهم بشكل صحيح وأن ادعاءهم هو نتيجة ضرورية ثابتة للدليل. ومع ذلك ، نجد بعد ذلك أن الاستنتاج يتعارض مع حقيقة أقوى من حيث الدليل. في هذه الحالة نطرح ما هو أقوى ونستبعد ما هو أضعف.

هذا بعد أن نستسلم لمزاعمهم من أجل الجدل ، وليس لأننا نعتقد في الواقع أن براهينهم صحيحة. لذلك نصل إلى هذه الخطوة الأخيرة والآخرة لهزيمتهم ودحض مزاعمهم.

مثال: النظريات التي ادعى الملحدين أنها حقيقة علمية لمحاولة إثبات أن الله غير موجود. نرد بهذه الطريقة:

١) هذه النظريات ليست حقائق علمية ثابتة.

٢) هناك رابط مفقود بين النظريات واستخدامها كدليل على عدم وجود الله (لا يوجد استنتاج ضروري).

٣) تتعارض هذه النظريات مع البراهين الأكثر ترجيحًا في إثبات وجود الله ، مثل الحجج المنطقية ، لأنها استنتاجات منطقية صحيحة تمامًا وتتعارض مع هذه النظريات التي لم يتم إثبات صحتها تمامًا.

[٤٥] سيتم مناقشة هذه النقطة بعمق أكبر عند الرد على " معضلة الشر"

الفصل التاسع

معالجة الشكوك المشتركة

(الجزء الأول: وجود الله)

عند التعامل مع منتقدي الإسلام ، من المهم أن تكون في موقف هجوم بدلاً من البقاء دائمًا في موقف دفاعي. لا يجب أن نتناقش ونرد على الشكوك دائمًا لأن هذا يصرف انتباهنا عن الأهم ، وهو إظهار حقيقة الإسلام الواضحة للناس وإقناعهم باتباعها. هكذا خاطب الله نصارى نجران:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) [آل عمران ٣:٦٤]

لذلك يعلمنا الله هنا أن نتخذ الخطوة الأولى وأن نبدأ بالهجوم. لا تجلس وتنتظر حتى تتعرض للهجوم ثم تفكر في كيفية الدفاع. ومن ثم ادعهم إلى الحق الذي نؤمن به وحذرهم من الباطل الذي يؤمنون به:

(أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ) [آل عمران ٣:٦٤]

ثم إذا رفضوا وأرادوا الاستمرار في الجدال ، فماذا تفعل؟ لا تشغل نفسك بالجدال مع أناس ليسوا مخلصين في السعي وراء الحقيقة ، لأنك لن تصل إلى أي نتيجة مع هؤلاء. بدلا من ذلك:

(فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) [آل عمران ٣:٦٤]

الشك الأول: العلم نفى وجود الذات الإلهية

هذا الأمر تناولناه بالفعل عند الحديث عن مصادر المعرفة. السبب الذي يجعل بعض الناس يعتقدون أن العلم اليوم قد دحض وجود الله هو أنه وفقًا لهم ، فإن الطريقة الوحيدة للوصول إلى حقيقة أي شيء هي من خلال المنهج العلمي. لقد ذكرنا أن مثل هؤلاء مؤمنون بما يعرف بالعلموية. إنهم يعتقدون أن شيئًا ما حقيقي فقط إذا أمكن إثباته علميًا ، مما يعني بطبيعة الحال أنهم لا يؤمنون بشيء اسمه عالم الغيب (أو العالم الميتافيزيقي). لقد بلغ الأمر أن بعضهم يحاول إثبات كيانات مثل الوعي والروح من خلال الوسائل والتفسيرات العلمية فهم في الأصل يريدون استبدال الدين بالعلم.

السبب الذي يجعل هؤلاء الناس لا يستطيعون فهم فكرة وجود خالق لهذا الكون هو أنه وفقًا لهم ، لا يمكن ملاحظته ، وبالتالي فهو غير موجود. لكن من الناحية المنطقية ، هذه طريقة معيبة في التفكير لأنه لا يتم

استبعاد كل ما لا يمكنك ملاحظته تلقائيًا واعتباره غير موجود. ما يعنيه هذا هو أن عدم وجود الله ليس أمراً يمكن إثباته.

علاوة على ذلك ، العلم هو مجال المعرفة الذي يستخدم لإثبات الكون المرئي فقط ، مما يعني أن عالمه يقتصر على الأشياء المادية التي يمكننا نحن البشر ملاحظتها بحواسنا المحدودة. الله بحكم تعريفه هو ذات موجود خارج الوجود المادي. هذا شيء لا يمكن للمرء أن يفهمه إلا بعد أن يفهم المفهوم الصحيح عن الله وصفاته.

الشك الثاني: من خلق الخالق؟

ومرة أخرى ، فإن هذا الاعتراض يقدمه شخص ليس لديه التصور الصحيح عن الله. لا يزال يفكر في الله ككائن مادي يجب أن يكون جزءًا من هذا الكون المادي.

للإجابة على هذا الشك ، نعود إلى أحد دلائل وجود الله: أصل الخلق / حجة السببية. تقول هذه الحجة: إن وجود الأشياء المادية يثبت أن شيئًا ما / شخصًا ما تسبب في وجودها من العدم ، لأنه من المستحيل أن تظهر إلى الوجود من تلقاء نفسها أو بدون سبب.

ومن الأمور التي ذكرناها في هذه الحجة أنها تقودنا بطبيعة الحال إلى الاعتقاد بأن هذا الخالق تنسب إليه صفة "الأول" الذي ليس له بداية ولم يسبقه أحد. هذا لأننا إذا قلنا - من باب الجدل - أن الخالق كان له خالق، فسيسألون ، "من خلق الخالق؟ إذن من الذي خلق خالق خالق الخالق ؟! " وهكذا ، بلا حدود. هذا غير منطقي ومستحيل لأن التسلل اللانهائي للأسباب غير ممكن منطقيًا لأنه سيعني أننا لن نكون موجودين ، لكننا موجودون. لنأخذ مثالا على عدد لانهائي افتراضي من الأكوان التي يتم إنشاؤها الواحد تلو الآخر ؛ إذا واصلت العودة بالزمن إلى ما لا نهاية ، فلن ينتهي بك الأمر إلى الوصول إلى الحاضر.

الاستنتاج هو أن كل الخليقة تعود إلى الخالق الذي خلق كل الأشياء. لم يخلقه أحد ، لقد خلق كل شيء. هو ذاته ليس جزءًا من هذه الخليقة ، بل منفصل عنها ، لذلك فهو غير ملزم بقوانين هذا الكون المخلوق. لا يمكن إنشاء شيء لم يكن له بداية. هذا هو ما يتقبله العقل والمنطق.

ولما كان هذا الاعتراض يخطر ببال الكثيرين ، ويمكن أن يسبب لهم شكوكًا جدية ، فقد أرشدنا بخصوصه الرسول صلى الله عليه وسلم ، من أين نشأ وكيف نتجاوب معه. قال: "لا يزال الناس يتساءلون حتى يقولون: هذا الله خلق كل شيئ ، فمن خلق الله؟ قال: فإذا وجد أحدكم ذلك، فليقل: آمنا بالله".[٤٦]

وفي رواية أخرى قال: يأتي الشيطان إلى أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ حتى يقول له: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك، فليستعذ بالله (بقوله: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) ولينته ".[٤٧]

الشك الثالث: إذا كان الله موجودًا ، فلماذا يوجد شر ومعاناة؟

تُعرف هذه باسم "معضلة الشر" وهي الحجة الأكثر استخدامًا للملحدين. في الواقع ، يعترف معظم الملحدين أن هذه القضية هي التي دفعتهم إلى عدم الإيمان بالله ، وفي الواقع ، هذه الحجة العاطفية هي التي تقف وراء إلحاد معظم الناس ، وليس اعتقادًا حقيقيًا بأن الله غير موجود على أساس عقلاني أو أدلة علمية ، كما قد يدعي الكثير منهم.

الحقيقة هي أن هذا الشك ليس له علاقة تذكر بوجود الله. إنه لا يثبت ولا يدحض وجود الله ، لأن هذا السؤال لا يطرح إلا بعد الإيمان بوجود الله. في الواقع ، ما يناقشه هذا السؤال هو صفات معينة من صفات الله تبدو مناقضة لوجود الشر والمعاناة. لذلك في الواقع ، هذا شيء لا يجب مناقشته إلا مع أولئك الذين يؤكدون وجود الله ، وقد كان الوضع كذلك دوماً في السابق ؛ فلطالما ناقش اللاهوتيون هذا السؤال تحت عنوان "ثيوديسيا" أو نظرية العدالة الإلهية ، وهي كيفية الإجابة عن سؤال لماذا يسمح الله الصالح بوجود الشر ، وبالتالي حل مسألة "معضلة الشر".

لذلك حتى لو قلنا - من باب الجدل - أن الله لا يتصف بهذه الصفات المحددة ، فإن هذا لا يعني أن الله غير موجود ، ولكنه فقط لا يتصف بهذه الصفات.

إذن ما هي "معضلة الشر"؟ إن وجود الشر والمعاناة البشرية يناقض أن ينسب إلى الله صفات الكمال ، مثل القوة الكاملة والعلم والرحمة والعدل ، لأن هذه الصفات تعني أنه لا يسمح بالشر والمعاناة ، بينما هو يسمح بذلك.

ردنا على هذا بسيط للغاية: أولئك الذين لديهم هذا الاعتراض قد أخطأوا في أمرين: مفهوم الشر والمعاناة ، ومفهوم صفات الله.

---

[٤٦] صحيح مسلم (٢١٢).
٤٧ صحيح البخاري (٣٢٧٦) وصحيح مسلم(٢١٤).

أولاً ، يستند تعريفهم للشر والمعاناة على الفردية والمادية. إذن ، بالنسبة لهم ، الخير الوحيد والسعادة هي من خلال المتعة المادية الحسية ، وإذا تم نزعها ، فهذا يعني الشر الخالص الذي لا يمكن أن يحتوي على أي خير.

لذا فإن المفهوم الصحيح للشر والمعاناة هو من خلال النظر من جميع المنظورات ، وليس فقط هذا المنظور الضيق. وبالتالي ، لا يوجد شر مطلق من جميع النواحي ، بل يأتي الشر في العديد من المنظورات المختلفة ؛ من وجهة نظرنا ، يبدو شرًا خالصًا ، لكن من وجهات نظر أخرى ، فيه خير (لكننا قد لا نراه).

وبناءً على هذا الفهم ، نعلم أن الله لم يخلق ولم يقدر شيئًا من الشر المحض من جميع الزوايا. بل إن الشر الذي يخلقه ويقدره هو شر نسبي.

وبهذه الطريقة نؤكد وجود الشر ، وفي نفس الوقت لا ننسبه إلى الله ، الأمر الذي أكده النبي صلى الله عليه وسلم عندما قال: "وتؤمن بالقدر خيره وشره"[٤٨]. وقال في أحد الأدعية: " والخير كله بيديك والشر ليس إليك".[٤٩]

ثانياً: فهمهم لصفات الله مبني على فهمهم لصفات الإنسان. لذا فهم يفكرون في الله تعالى من منظور بشري. على سبيل المثال ، لديهم تصور معين عن الرحمة بناءً على ما يرونه عندما يرحم البشر بعضهم البعض ، ثم يعتقدون أن رحمة الله يجب أن تكون واحدة ، أو عدالة الله ، إلخ. وهكذا ، عندما يرون الشر والمعاناة ، فإنهم يعتقدون أن رحمة الله أو العدل مفقود.

كما أنهم ينظرون إلى كل صفة من صفات الله على حدة ، دون أن يلقوا نظرة شاملة تجمع كل الصفات. على سبيل المثال ، من ينظر إلى رحمة الله فقط ، ويتجاهل صفات أخرى مثل عدل الله وعقابه ، فسيواجه مشكلة عندما يرى الشر والمعاناة لأنه لا يعرف سوى صفة واحدة من صفات الله.

فالطريقة الصحيحة لفهم صفات الله هي أن ندرك أولاً أن الله لا يشبه بأي شكل من الأشكال خلقه - لا في جوهره ولا في صفاته ، لأن الله وصفاته كاملة في كل شيء ، بينما صفاتنا ناقصة، ثم بإلقاء نظرة شاملة على جميع صفات الله ، دون عزل إحداها عن غيرها.

بناءً على هذا الفهم ، نرى كيف يحل الإسلام هذه المعضلة المزعومة. إذا سمح الله بالشر، أولاً: فهو شر لنا ولكن فيه خير من الله. وثانيًا: أن سماح الله بوقوع الشرلا يعني أنه ليس رحيمًا ، أو أنه ظالم ، أو عاجزعن

---

[٤٨] صحيح مسلم (٨).
[٤٩] صحيح مسلم (٧٧١).

إزالته. كل ما يعنيه هو أن الله سمح بوقوعه وقدره لحكمة أعظم ، وقد نرى ذلك أحيانًا ، بينما قد لا نتمكن في معظم الأوقات من رؤيته أو إدراكه.

لذلك فإذا كنا لا نستطيع رؤية تلك الحكمة والغرض ، فهذا لا يعني أنها غير موجودة ، كل ما يعنيه هو أن الله قد أخفاها عنا. لذلك يأتي هذا الأمر ضمن عالم الغيبيات الذي لا تستطيع عقولنا المحدودة فهمه أبدًا.

فلكل شر وكل معاناة إنسانية أسباب حكيمة في إجازة الله لها. وقد أخبرنا الله تعالى ورسوله عن بعضها ، كالعقاب ، والدعوة ، والرحمة ، والتطهير ، وتعويض الذنوب ، والأجر في الآخرة ، ونحو ذلك.

الفصل العاشر

مخاطبة شكوك عامة

(الجزء الثاني: أسس الإسلام)

الشك رقم واحد: لا يوجد حاجة إلى الدين

هذا الشك يظهر إلى الناس الذين يعتقدون بوجود الله وهم واثقون بذلك، ولكن يوجد شيءٌ يمنعهم من الاستسلام إلى الله وما أنزل إلينا.

هؤلاء الناس من الممكن أن يكونوا ربانيين يؤمنون بوجود كيان خارق وهو من أنشأ الكون، ولكن لا يعتقدون بأنه يتدخل فيه أو أنه يتواصل مع البشر. هؤلاء الناس يعتقدون بأن الله تعالى لم ينزل دين معين أو طريقة حياة للبشر حتى يتبعونها.

أو أن هؤلاء الناس قد يكونوا مسلمين ولكن يعتقدون أن الإسلام ليس له حاجة في حياتنا المعاصرة، أو أن الإسلام ممكن أن يزاول فقط على المستوى الشخصي، كما يزاول في المجتمعات العلمانية حيث أن الدولة لا تتدخل في الدين.

إذاً كيف نجيب على هذا الشك؟

أولا، للإجابة على الشخص الرباني لابد أن نجلب انتباه إلى من هو الله بصفة خاصة وما هي بعض من صفاته التي يجب أن يمتلكها. الخالق لابد أن تكون له صفات الكمال حتى تكون له الأحقية بأن يكون إلاله مثال القوة، الحكمة، الرحمة، والعدل، إلى آخره.

فإذا اتفقنا أننا من صنع الخالق فإن هذا الخالق لابد أنه أعلمنا بمن هو وماذا يتوقع منا، لأنه ليس من المنطقي قبول أن الإله سيتركنا في هذا العالم نتخبط في حيرة عن من هو وماذا يريد منا. هذا يعني أن الإله غير عادل، و جميعا إذا سنتفق حتى يكون الإله إلهاً لابد أن يمتلك صفات الكمال ومنها كمال العقل وكمال والرحمة.

بمجرد أن نفهم هذا، سنفهم أن الإله (الله) حتمًا قد تواصل معنا و أخبرنا عنه وما يريده منا. لقد أرسل الله العديد من الأنبياء والرسل إلى البشرية عبر التاريخ لغرض وحيد هو إرشادهم لفهم من هو الله وماذا يريد الله منهم.

أما بالنسبة للمسلم الذي أخذ يشك في الحاجة إلى الدين، فإننا عن نلفت انتباهه إلى حقيقة أنه لا توجد طريقة ممكنة لمعرفة أشياء معينة أوعبادة الله بالطريقة التي يرضى بها، أو أن نعيش حياتنا ونعمل بأفضل طريقة ممكنة إلا من خلال كشف الله لنا عن كل ذلك، وهو من خلال الأنبياء.

نعم، من حيث أشياء معينة في حياتنا، يمكننا نحن البشر تحديد فوائدها وأضرارها بشكل مستقل، مثل التقدم العلمي والتكنولوجي، ولكن من أين ستحدد عقولنا البشرية تفاصيل صفات الله أو ما هو موجود في عالم الغيب، والحياة بعد الموت أو الطريقة التي يريدنا الله أن نعبده بها، او تفاصيل الصواب والخطا وما إلى ذلك.

أخيرا نقول أنه طالما أن المرأ مقتنعا بالأدلة التي تثبت أن الإسلام هو الحق من الله فلا مفر من حقيقة أن الله قد عالج في القرآن حاجتنا إلى هداية و أنه لا يمكننا الاستغناء عنه في هذه الحياة وفي الآخرة.

قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}

وقال تعالى:{ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}

الشك الثاني: لا حاجة إلى السنة

ما هذا الشك يأتي من بعض المسلمين المتطورين الذين يعتقدون بأن القرآن وحده هو وحي الله في حين أنه نص الحديث الذي لدينا ليس إلهياً وهو كلمت الرجال التي نقلها رجال. يشار إلى هؤلاء الأشخاص عادة باسم القرآنيين أو رافضين الحديث.

أولا أن هؤلاء الأشخاص انتقائيون للغاية فيما يستشهدون به كدليل على موقفهم. لذلك يقتبسون أنواع معينة من الآيات من القرآن لدعم موقفهم، مثل: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ} سورة النحل

بينما يتجاهلون العديد من الآيات الأخرى التي تشير إلى صحة السنة و التي سنذكرها لاحقا.

لذا فإن طريقة الإجابة على هذا الشكل ذات شقين:

أولا، من خلال توضيح معنى أن القرآن هو "تبيانا لكل شيء" وأن كلام الله هو كل ما نحتاجه، نعم فإنه ليس هناك من شك على الإطلاق في أن القرآن شرح كل شيء، ولكن ما يعني هذا أن بعض الأمور شرحها الله في القرآن مباشرة بينما أحالنا الله في أمور أخرى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم و أحيانا إلى أهل العلم و أحيانا إلى ولي الأمر و أحيانا أخرى إلى أهل الإيمان.

ثانيا، من خلال إظهار الأدلة من القرآن نفسه (والذي يعتقد مثل هذا الشخص اننا يجب اتباعه) تثبت صحة السنة (كوحي الهي و تشريع) ومن الامثلة ما يلي:

{وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} سورة الحشر (ءاية ٧)

{مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} سورة النساء (ءاية ٨٠)

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} سورة النساء (ءاية٥٩)

{ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} سورة النساء (ءاية ٦٥)

{وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} سورة النجم (ءاية٣-٤)

ويجب علينا هنا أن نظهر نقاط التمييز بين القرآن والسنة حيث أن كلاهما وحي من الله ولكن هناك فرق بينهما نوضحه فيما يلي:

أولا، السنة تكون كتفسير للقرآن. يقول ابن عبد البار: حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن القرآن من نوعين:

١) شرح الأحكام المجملة في القرآن ، مثل الصلوات الخمس اليومية من حيث أوقاتها و سجودها وركوعها و جميع أحكامها الأخرى .

٢) إضافة إلى أحكام القرآن مثل تحريم الزواج من امرأة وخالتها أو عمتها في نفس الوقت.*٢٧

ثانيًا، القرآن هو كلام الله المنزل حرفيا على رسوله عليه الصلاة والسلام ، في حين أن السنة قد لا تكون كلام الله بل هي وحيه فقط. لذلك ليس من الضروري أن تصل إلينا حرفيا، و لكن يصل إلينا المعنى.

ثالثا، في حين تم حفظ القرآن في جميع كلماته و معانيه, كما وعد الله بحفظه، بينما السنة وصلتنا بالمعنى وليس بالضرورة حرفيًا ، لأن الهدف من وصول السنة إلينا ليس التعبد بها وتلاوتها كما نتعبد بالقرآن ولكن الهدف هو وصول المعنى.

ومع ذلك كله، سعى علماء الإسلام منذ الأجيال الأولى بجد و اجتهاد إلى توصيل ما سمعوه من الرسول عليه الصلاة والسلام كلمة كلمة، وهذا هو السبب في أنك لن تجد أي نظام لنقل الأدب في تاريخ البشرية أكثر دقة وصرامة في التحقق من صحته من علم الحديث، وما فعله علماؤنا الأوائل للحفاظ على السنة ، وغربلة ما يمكن أن يعزى بشكل أصيل إلى النبي صلى الله عليه وسلم مقابل ما لا يمكن ان ينسب الى الرسول عليه أفضل الصلاة و السلام.

الفصل الحادي عشر

معالجة الشبهات الشائعة

(الجزء ٣: تشريعات الإسلام)

إن من المهم أن نفهم أن السبب الرئيس لمن يجدون إشكالات في تشريعات الإسلام هو أن لديهم نظرة علمانية ليبرالية غربية للحياة، سواء أدركوا ذلك أم لم يدركوه. ولذلك نجدهم يشككون في جوانب معينة من تشريعات الإسلام لأنها بالنسبة لهم تتعارض مع ما يعتبرونه بنظرتهم الغربية المساواة والحرية والعدالة، وتصورهم هذا غربي تماما في طبيعته وليس إسلامياً.

لذا فالواجب علينا أن نعَدِّل تصورنا للأشياء من حولنا في عقولنا وروحنا منذ البداية، لأن الكثير من شبابنا قد اسْتُعْمِرت عقولهم من الغرب دون أن يدركوا ذلك، ولهذا تجد كثيرا من هؤلاء الشباب يحاولون إيجاد طريق وسط بين الإسلام، والمجتمع الغربي بمعاييره وتقاليده.

أما المسلم فهو الذي يخضع بكل إخلاص لما قدره الله وشرعه، سواء كان ذلك منطقيا بالنسبة له أم لا، وسواء رأى الحكمة فيه أم لم يرها. فالمسلم لا يعارض تشريعات الله ورسوله. يقول الله تعالى:

{ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا }

وعندما ننظر إلى مصطلحات مثل المساواة والحرية والعدالة، نحتاج إلى أن نسأل أنفسنا أي التصورين سنتبنى منهجا لنا؟

فالمساواة تعني: معاملة الحالات المتشابهة على نحو مماثل ومعالجة الحالات المخالفة على نحو مختلف. ولكن من الذي يقرر ما هي الحالات المتشابهة؟

والحرية تعني: إعطاء كل إنسان الحق في العيش كما يريد، أو الحفاظ على المصالح الإنسانية. ولكن من الذي يحدد ما هي المصالح الإنسانية؟

وتنطبق هذه الأسئلة على قيمة العدالة كذلك؛ فنسألُ: من الذي يقرر ما تعنيه العدالة؟ وما هي القوانين التي تعتبر عادلة؟

إننا بحاجة إلى إصلاح فهمنا لهذه المصطلحات وإدراك أن الكثير ممن يعترضون على تشريعات الإسلام يفعلون ذلك بسبب ما مر به الغرب في تاريخه المظلم من القمع والاستعباد. فمثلا عندما يستمعون إلى كلمة "العبودية" فإن ما يخطر على بالهم هو تجارة العبيد عبر المحيط الأطلسي من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر. وعندما يسمعون عن "القتال باسم الدين"، يفكرون في قهر الدين والنخبة الدينية لهم في أوروبا في العصور الوسطى. وعندما يسمعون أن النساء لا يعاملن على قدم المساواة مع الرجال، فإن النساء الغربيات يتذكرن ماضيهن، إلى غير ذلك من الأمثلة.

الشبهة الأولى: الإسلام يسمح بالرق ويشجعه

أولاً، يؤكد الإسلام أن الله خلق الإنسان وجعله مسؤولا مسؤولية فردية وألزمه بواجبات يرتبط بها الثواب والعقاب على أساس إرادة الإنسان واختياره الحر. وليس لأي إنسان الحق في تقييد هذه الحرية أو انتزاع هذا الاختيار بصورة غير قانونية؛ ومن يجرؤ على القيام بذلك فهو ظالم.

ثانيا، عندما جاء الإسلام، كانت هناك أسباب كثيرة للرق، مثل الحروب، والديون (إذا لم يتمكن المدين من سداد دينه، أصبح عبدا)، والاختطاف والغارات، والفقر.

وعندما ننظر إلى كيفية انتشار الرق في جميع أنحاء العالم في القرون الأخيرة، نجد أنه لم ينتشر بهذه الطريقة المروعة إلا عن طريق الاختطاف. بل إن المصدر الرئيس للرقيق في أوروبا وأمريكا في قرون لاحقة كان الاختطاف.

ثالثا، عندما جاء الإسلام، قلل مصادر العبودية التي كانت موجودة قبل بداية رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى طريق واحد فقط وهو الاسترقاق في حال الحرب الذي فُرضَ على أسرى الحرب غير المسلمين ونسائهم وأطفالهم.

وكان القبض على الأسرى أثناء الحرب أكثر الطرق شيوعا لاكتساب العبيد. ومن المحتم أن يُقبض على الأسرى أثناء أي حرب، وكان العرف السائد في ذلك الوقت هو أن الأسرى لا يتمتعون بأي حماية أو حقوق. فإما أن يقتلوا أو يستعبدوا. ولكن الإسلام جلب خيارين آخرين: الإفراج غير المشروط أو الفدية.

وبالتالي، يمكننا أن نفهم الطرق المحدودة التي يمكن أن تؤدي إلى العبودية. فالإسلام لم يلغيها تماماً، لأن الأسير غير المسلم الذي يعارض الحق والعدل مخطئ، أو مؤيد للخطأ، أو أداة في تنفيذ الخطأ أو إقراره.

والإفراج عنه يتيح له الحرية والفرصة لنشر الفساد والاعتداء على الآخرين ومعارضة الإسلام، دين الله الحق، ومنعه من الوصول إلى الناس.

رابعا، عندما جاء الإسلام، غير الطريقة التي يجب أن يعامل بها العبيد. فالعبيد قبل الإسلام لم يكن الناس يعتبرونهم بشراً وكانوا يعاملون معاملة أسوأ من الحيوانات. واستمر ذلك في المجتمع الغربي حتى عقود قليلة مضت.

لكن ماذا عن الإسلام؟

الإسلام يعلمنا خلاف ذلك. ففيما يتعلق بالتعامل مع العبيد يعلمنا الإسلام:

١- معاملتهم بإنصاف وضمان طعامهم وملابسهم كأسيادهم. قال النبي (□):" نَعَمْ، هُمْ إِخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ جَعَلَ اللَّهُ أَخَاهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ يُكَلِّفُهُ مِنَ الْعَمَلِ مَا يَغْلِبُهُ، فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ فَلْيُعِنْهُ عَلَيْهِ ".٥٠

٢- الحفاظ على كرامتهم. قال النبي (□): "مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ وَهُوَ بَرِيءٌ مِمَّا قَالَ، جُلِدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلاَّ أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ".٥١ وقال أيضاً (□): مَنْ ضَرَبَ غُلاَمًا لَهُ حَدًّا لَمْ يَأْتِهِ أَوْ لَطَمَهُ فَإِنَّ كَفَّارَتَهُ أَنْ يُعْتِقَهُ"٥٢.

خامساً، كما أوضحنا سابقاً، قبل ظهور الإسلام كانت هناك مصادر للرق عديدة، في حين أن وسائل تحريرهم من هذا الرق كانت تكاد تكون معدومة. فلما جاء الإسلام، أتى بطرق جديدة لتحرير العبيد وتخليصهم من الرق.

ومن بين طرق تحرير الرقيق ما يلي:

١- تخصيص جزء من أموال الزكاة لتحرير العبيد.

٢- جعل كفارة القتل عتق رقبة.

٣- جعل كفارة حنث اليمين والجماع أثناء النهار في شهر رمضان تحرير رقبة.

٤- المكاتبة: حيث يستطيع العبيد أن يشتري نفسه من سيده ويكون حراً.

---

٥٠ صحيح البخاري، حديث رقم ٦٠٥٠

٥١ صحيح البخاري، حديث رقم ٦٨٥٨

٥٢ صحيح مسلم، حديث رقم ١٦٥٧

وبالإضافة إلى ذلك، شجع الإسلام المسلمين على تحرير الرقاب في سبيل الله ووعد بأجر وثواب كبير لمن يفعلون ذلك.

الشبهة الثانية: الإسلام يشرع حدود تتعارض مع حقوق الإنسان وحرياته

أولاً، الإسلام طريقة حياة كاملة تغطي جميع جوانب الحياة البشرية، فهو ليس دينا فرديا، بل يضبط المجتمعات أيضا. والهدف الرئيسي للنظام الجنائي في الإسلام هو: حفظ الحقوق؛ سواء كانت حقوقا فردية (مثل إيذاء النفس، بشرب الخمر أو الانتحار)، وحقوقا للأخرين (مثل القتل والسرقة والزنا)، وحقوقا لله (مثل العبادة والدعوة). ولذا يلزم وجود نظام عقابي وتأديبي لمعاقبة الذين ينتهكون أياً من هذه الحقوق.

ثانيا، لا أحد يعرف ما هي القوانين الأفضل لنا غير خالقنا. وقد وُضعت هذه القوانين لمنع الأشخاص من انتهاكها. وعندما لا توضع هذه القوانين الصارمة، فإنها لا تردع الناس عن التعدي عليها.

ثالثاً، عندما يتعلق الأمر بعقوبة الردة على وجه التحديد، فإننا بحاجة إلى فهمها من المنظور الصحيح: فليس أي شخص غير مسلم يعيش في مجتمع مسلم يُعدم لكونه كافراً، بل إن هناك قواعد وشروطاً مثل:

١- المرتد هو من كان مسلما طوال حياته، ثم قرر أن يعلن كفره، بمعتقدات وكلمات وأفعال.

٢- أنه بالغ ذو عقل سليم وترك الإسلام بحرية واختيار منه.

٣- تعرض قضيته على محكمة إسلامية تابعة للدولة (يمكن للقاضي وحده أن يصدر حكماً في قضيته).

٤- إذا ثبتت إدانته، تعطى له فترة سماح مدتها ثلاثة أيام للتوبة.

وبعد أن نفهم هذه الشروط، نرى أن هناك أسبابا وحكمة وراء قيام الإسلام بسن مثل هذا الحكم الصارم على المرتدين. ومن بين هذه الأسباب ما يلي:

١- الحفاظ على قدسية الإسلام في المجتمع (لكل مجتمع أشياء مقدسة وخطوط حمراء)

٢- الحفاظ على التماسك الاجتماعي للمجتمع (الردة المعلنة تسبب الارتباك والاضطراب بين المؤمنين الذين كانوا على الفطرة السوية)

٣ - المرتدين يرتكبون الخيانة (فولاؤهم لم يعد للمجتمع الإسلامي)، ولذا فهم أسوأ وأخطر من غير المؤمنين المولودين (لأنه قبل الإسلام في البداية ثم ظلم نفسه بالكفر بعكس الكافر الذي لم يؤمن قط).

الشبهة الثالثة: الإسلام يحط من قدر المرأة ويضطهدها

أولا، أتي الإسلام في وقت كانت فيه المرأة مُهانةً ويُنظر إليها على أنها بلا قيمة. فمثلا انظروا إلى الأمثلة العديدة عن نظرة العرب قبل الإسلام للمرأة (وأد البنات، لا حقوق للنساء في الميراث، الإكراه على البغاء، الإكراه على الطواف بالكعبة عاريات، إلى غير ذلك من الأمثلة).

ثانياً، عندما جاء الإسلام، رفع مكانة النساء، فأعاد إليهن حقوقهن المشروعة ووضعهن في المنزلة التي تليق بهن. وأنهى الإسلام كذلك عدة جرائم ومظالم كانت ترتكب ضد المرأة. فمثلا أنهى الإسلام وأد البنات ونص الشرع على حق المرأة في الميراث وتملك الممتلكات، ونص على أن ثروة المرأة ومالها هو ملكها ولا يمكن لأحد أن يأخذه منها، ونص الإسلام أيضا أن طعام المرأة وكسوتها وحمايتها مسؤولية زوجها إن كانت متزوجة أو والدها أو إخوانها إذا لم تكن متزوجة، بغض النظر عن مدى ثرائها وكثيرة أموالها.

وقد نزلت آيات كثيرة توصي الرجال بأن يكونوا لطفاء وعادلين مع النساء وأن يُعفوا عن أخطائهن.
وأرشدنا النبي (□) أيضاً إلى حسن معاملة النساء بقوله:" خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي"[٥٣]

فإذا كان كل هذا صحيحا، فلماذا إذن لدينا بعض القوانين شرعية في الإسلام يبدو أنها تعامل المرأة معاملة غير متساوية مع الرجل؟

والجواب هو كما يلي:

١- رفع الإسلام المرأة إلى مكان انتمائها. ورفعها إلى مستوى أعلى من ذلك هو انتهاك وليس عدالة. فالمرأة ليست مساوية للرجل في نواح كثيرة، وقد خلقت بخصائص وأدوار مختلفة. إن إعطاء المرأة خصائص وأدوار لا تنتمي لطبيعتها أمر ظالم لها.

[٥٣] سنن الترمذي (حديث رقم ٣٨٩٦) وسنن ابن ماجه (حديث رقم ١٩٧٧)

٢- إذا نُسب ظلم واضح للمرأة إلى الإسلام، فإننا بحاجة إلى التمييز بين ما يعلّمه الإسلام حقيقةً وما تمارسه بعض الثقافات المسلمة. لذا لا تحكم على الإسلام من ممارسات الناس، بل احكم على الناس تبعا لتعاليم الإسلام.

٣- إن من يوجهون هذه الاتهامات ضد الإسلام يقعون في خطأ ومغالطات، مثل مغالطة رجل القش؛ ولا يوجد دليل يدعم هذه الادعاءات، بل مجرد هي مجرد ادعاءات فقط. وعندما تكون هناك أدلة، فإنها لا تفهم فهماً صحيحاً أو يتم اختيارها بشكل انتقائي ومتحيز متجاهلين جميع الأدلة الأخرى.

الفصل الثاني عشر

مبادئ توجيهية للتعامل مع الشبهات المعاصرة

وفي الختام، من المهم أن يفهم كل طالب من طلاب العلوم الإسلامية الداعين للإسلام كيفية التعامل مع الشكوك المعاصرة وكيفية التعامل مع المسلمين العاديين الذين يأتون إلينا بهذه الشكوك. وفيما يلي بعض المبادئ التوجيهية المفيدة في هذا الصدد:

المبدأ التوجيهي الأول: الوقاية خير من العلاج

هذه هي الطريقة التي نتعامل بها مع الأمراض الشائعة. فنحن لا ننتظر حتى نصبح معرضين لهذه الأمراض، بل نتخذ تدابير وقائية حتى لا نصاب بها في المقام الأول.

وبالمثل، يجب أن نوفر لأولادنا الوقاية اللازمة حتى لا يتأثروا بهذه الشكوك. ويتحقق ذلك بترسيخ الإيمان في أبنائنا في سن مبكر، وليس فقط بتعليمهم العقيدة النظرية.

يقول جندب بن عبد الله: "كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ (□) نَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ فَتَعَلَّمْنَا الإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا". ٥٤

ونجد هذا المبدأ أيضا في حياة النبي (□) الذي قضى ثلاثة عشر عاما في مكة مركزا على تأصيل الإيمان في القلوب، ثم في المدينة استمر على هذا المبدأ من خلال مناقشة أهل الكتاب والرد على شكوك وادعاءات المنافقين.

المبدأ التوجيهي الثاني: لا تواجهوا الشكوك الخطيرة دون علم

يجب أن ترد فقط على مثل هذه الشبهات إذا شعرت بأن لديك أساسا جيدا من المعرفة والمهارات اللازمة للرد. إذا حاولت مواجهة الشك والرد عليه بدون علم، يمكنك أن تذهب في نهاية المطاف إلى نسبة شيء غير صحيح لله تعالى. يقول الله تعالى: { فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ}]آل عمران أية ٦٦[

---

٥٤ سنن ابن ماجه (حديث رقم ٦١)

ويقول الله تعالى:

{ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ] } الأعراف أية ٣٣[

المبدأ التوجيهي الثالث: كن لَيّنا وصبورا

إن ما يدفع الناس الى الشكوك والأسئلة بعيدا عن الإسلام هو عندما مواجهتهم بعنف ومنعهم من إبداء وجهة نظرهم. ولذلك عندما أمر الله موسى وهارون إلى دعوة واحد من أعتى الطغاة في تاريخ البشرية قال لهما:

{ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ }

[طه أية ٤٤]

وأقل ما يمكن تحقيقه باستخدام هذه الطريقة هو أن الشخص صاحب الشكوك إن لم يهتد، فإن شره وأذاه سيُحوَّلان بعيدا عن الإسلام وأهله.

المبدأ التوجيهي الرابع: لا تثر شكوكا خطيرة أمام عامة جمهور المسلمين

إن الناس عادة ينجذبون للآراء الغريبة وغير الاعتيادية، وعندما يسمعون هذه الآراء فإنها تستقر في قلوبهم لفترة طويلة. لذلك دعونا لا ندمر فطرة الناس بتعريضهم لما يتعارض مع الفطرة. فحتى لو تمكنتم من الرد على الشبهات بعد إثارتها أمام الناس، ربما لن يستمعوا إلى الرد أو يتذكروه أو يفهموه. وهذا الشبهة التي عرضتموها عليهم، فإنها بالتأكيد ستبقى معهم، ثم إذا أفسد ذلك إيمانهم، ستتحملون أنتم المسؤولية لأنكم أثرتم هذه الشبهة علنا في المقام الأول. كما قال النبي (□): "مَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا[٥٥]"

فمن يجب مناقشته في هذه الشكوك هو الشخص المتأثر بها، وليس جمهور المسلمين.

المبدأ التوجيهي الخامس: إبقاء الشبهة قصيرة والتعمق في تفنيدها

[٥٥] صحيح مسلم (حديث رقم ٢٦٧٤)

وعند مناقشة الشبهات الخطيرة مع المتأثرين بها، يتعين علينا أن نذكر الشبهة بإيجاز ثم ننتقل إلى دحض الشبهة لمدة طويلة. وهذا يتيح للرد أن يكون قويا وعاطفيا.

ولسوء الحظ، يقضي البعض مدة طويلة في ذكر الشبهات، ثم يقدمون رداً موجزاً فقط. وهذا يتعارض مع طريقة الرسل وطريقة القرآن.

فهنا إبراهيم عليه السلام عندما أدرك أنه ليس من الحكمة الرد على معارضه بنقاش قد يطول أمده:

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ] } البقرة أية ٢٥٨[

المبدأ التوجيهي السادس: ألق ألف محاضرة وناظر مناظرة واحدة فقط

وهذا المبدأ التوجيهي تأكيد للمبدأ التوجيهي الرابع (لا تثر شكوكا خطيرة أمام عامة جمهور المسلمين).
فالمناظرات هي أحد الأسباب الرئيسية لانتشار الشكوك لأنها توفر للخصم منصة لنشر أفكاره بيننا في حين أنه لم تكن لديه تلك القدرة قبل ذلك. ولذا تجد أن الضالين يحبون المناظرات.

ولا ينبغي إجراء المناظرات إلا مع الضالين الذين لديهم أتباع كثر يضلونهم بغير علم، وينبغي أن تعقد هذه المناظرات أمام هؤلاء الأتباع فقط، وليس أمام عامة الجمهور المسلم.

كذلك ينبغي ألا يناظر هؤلاء إلا الأشخاص المناسبين من جانبنا. يقول ابن تيمية في هذا الصدد: "وليس كل من وجد العلم قدر على التعبير عنه، فالعلم شيء، وبيانه شيء آخر، والمناظرة عنه شيء ثالث، والجواب عن حُجَّة مخالفه شيءٌ رابع"[٥٦]

المبدأ التوجيهي السابع: الابتعاد عن قراءة الشبهات الخطيرة أو التدقيق فيها

فالوحيدون الذين ينبغي أن يقرأوا هذه الشبهات و والادعاءات ضد الإسلام هم العلماء المختصون للرد عليها وليس كل مسلم.

[٥٦] جواب الاعتراضات المصرية على الفتيا الحموية | (ص ٤٤)

فكما أن الشخص الذي لا يعرف كيفية السباحة لا يقرب من موجات المحيطات، ينبغي بالمثل ألا يستمع أحد إلى هذه الشكوك باستثناء أولئك الذين يعرفون كيفية الرد ويخططون للقيام بذلك.

وقد حذرنا الله عزوجل من الإصغاء إلى زيف أعداء الإسلام بقوله تعالى:

{ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ }

[النساء أية ١٤٠]

وهناك العديد من العلماء البارزين في التاريخ الذين تأثروا بهذه الشبهات بسبب كثرة مجالستهم لهؤلاء الضالين، بما في ذلك كثير من طالبي العلم اليوم الذين درسوا الدراسات الإسلامية في الجامعات الغربية و تعرضوا للانحرافات والهرطقات حين حاول هؤلاء الضالون توضيح الإسلام لهم.

لذلك يجب علينا أن نتجنب الوقوع في طريق هجمات أعداء الإسلام لحماية إيماننا.

المبدأ التوجيهي الثامن: التمييز بين الشبهة الميتة والشبهة واسعة الانتشار

فلا يجوز إحياء شبهة خاطئة ماتت بالفعل، بل لا ينبغي حتى أن نذكرها. أما وجهة النظر الخاطئة المنتشرة على نطاق واسع والعقول تتأثر بها، ينبغي التعامل معها والتصدي لها بنفس المستوى من الدعاية.

المبدأ التوجيهي التاسع: دحض الشكوك هو دحض مقتضب وكذلك دحض مفصل

هناك العديد من الأمثلة على شكوك تحمل في طياتها دلائل على صدق الإسلام، فيجب أن نشير إلى هذه الدلائل لمعارضتنا. فعلى سبيل المثال، كثيراً ما يذكر منتقدو الإسلام قصة يهود بني قُرَيضة وأمر النبي (□) بقتلهم، مدعيين أنها كانت مجزرة. ويمكننا أن نرد على هذا الشبهة بالطريقتين التاليتين:

١- دحض مقتضب: المصدر الذي تقتبسه منه (الحديث) مليء بحقيقة رسالة الإسلام. لذا إذا قبلت هذه القصة، يجب أن تقبل أن محمد كان رسولاً حقا من عند الله.

٢- دحض مفصل: نذكر القصة بأكملها والسياق الذي حدث فيه القتل.[٥٧]

[٥٧] صيح مسلم (حديث رقم ١٧٦٨)

المبدأ التوجيهي العاشر: التمييز بين وسوسة الشيطان الشبهات الحقيقية

إن كل مؤمن قد تدور في عقله أفكار منافية للإسلام أحيانا، ومصدر هذه الأفكار هو الشيطان. وهذه الهمزات ليست شكوكا حقيقية ولا ينبغي معاملتها بنفس الطريقة.

وقد علمنا النبي (□) طريقة التعامل مع هذه الهمزات الشيطانية فقال (□): "لاَ يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ هَذَا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ"[٥٨]

في رواية أخرى، قال: "يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَ كَذَا مَنْ خَلَقَ كَذَا حَتَّى يَقُولَ مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ، وَلْيَنْتَهِ".[٥٩]

ومن هذا الحديث نرى أن:

١- أن هذه السؤال مصدره الشيطان.

٢- كيفية التعامل معها:

أ) التوقف عن متابعة هذه الأفكار والخدع من الشيطان.

ب) قول: آمنت بالله.

ج) الاستعاذة بالله من الشيطان.

فالشبهة الحقيقية أمر يتطلب تفسيرا وردا. وإذا كانت الاستجابة صحيحة ومؤثرة، فإن الشك سيزول. وأما همس شيطان فلن يختفي بمحاولة الرد عليه، حتى لو كانت لديك مئة إجابة. والطريقة الوحيدة للتعامل معه هو بنبذه وتجاهله كما أرشدنا النبي □.

[٥٨] صيح مسلم (حديث رقم ٢١٢)

[٥٩] صحيح البخاري (حديث رقم ٣٢٧٦) وصحيح مسلم (حديث رقم ٢١٤)

هذا الكتاب

الهدف من هذا الكتاب هو مساعدتنا في مواجهة موجة الشكوك والادعاءات الكاذبة التي نشهدها اليوم ضد الإسلام ومبادئه، سواء كنت أنت نفسك تتعرض لهذه الشكوك، أو تريد مساعدة من قد تأثر بها، أو تريد أن تزود نفسك بالمعرفة للتعامل مع هذه الشكوك. بقراءة هذا الكتاب سيظهر لك أن الإيمان بالإسلام باعتباره الحق ليس شيئًا عاطفيًا مبنيًا على اتباع أجدادنا فحسب، بل هو حق مبني على مجموعة واسعة من الأدلة والبراهين والحجج المقنعة تخضع لها عقولنا وقلوبنا.

التعريف بالمؤلف

ماجستير في العقيدة والأديان المعاصرة من جامعة القصيم في مجال الإلحاد الجديد وتأثيره على الشباب المسلم. بكالوريوس من كلية الشريعة من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ودبلومة في الدعوة من كلية الدعوة وأصول الدين من نفس الجامعة. مدرس بالجامعة الدولية المفتوحة IOU وله برامج على قناتي السلام والهدى.

Caulfield Cres., Mississauga, ON L5M 6J7 - Canada 3054
Tel . : +1 (647)633-3491
E-mail : info@ayaatacademy.ca
ميساساجا - أونتاريو - كندا
www.ayaatacademy.ca

أكاديمية آيات
Ayaat Academy